د. زكي جمعة

المعرفة والبحث العلمي



المعرفة والبحث العلمي

د. زكي جمعة

المعرفة والبحث العلمي



دار الفارابي

الكتاب: المعرفة والبحث العلمي

المؤلف: د. زكي جمعة

الغلاف: فارس غصوب

الناشر: دار الفارابي ـ بيروت ـ لبنان

ت: ٣٠١٤٦١(٠١) - فاكس: ٣٠٧٧٧٥(٠١)

ص.ب: ٣١٨١/١١ - الرمز البريدي: ٢١٣٠ ١١٠٧

www.dar-alfarabi.com

e-mail: info@dar-alfarabi.com

الطبعة الأولى: كانون الثاني ٢٠١٦

ISBN: 978-614-432-497-4

المحتويات

المقدمة

يتبدل الواقع بتبدل وتطور المعرفة، المواكبة للحياة الإنسانيّة. ليس جديداً وجود علاقة بين الإنسان وما يبحث عنه أو فيه، وما يريد معرفته، إنها علاقة كانت ولا تزال منذ أن كان هذا الإنسان، ومنذ اللحظة التي انطلق فيها باحثاً عن المعرفة بالأشياء التي يراها ويلمسها ويحسها ويتخيلها.

لقد ثبت في كل مراحل التاريخ البشري، أنَّ الإنسان مهتم بالمعرفة، وباحث عنها. وأنّ ذلك يعتبر قيمة إنسانية تميزه من غيره من المخلوقات، وتدحض ما قيل عن الوظيفة الفيزيولوجية للدماغ الإنساني فقط.

لقد كان الدماغ ولا يزال يعمل فيزيولوجياً ويترافق ذلك مع عمل الوعي ولا ينفصل عنه.

يعتبر الموضوع، الطبيعي والإنساني جوهراً بذاته، والذات هي جوهرٌ آخر، لكنهما غير منفصلين كلياً، بل إنهما متصلان عفوياً أحياناً، وقصدياً أحياناً أخرى، إذ لطالما كان الإنسان شريكاً للطبيعة

في تبدلها وتغيّرها وتطورها، ومؤثراً ومبدلاً فيها، وكذلك خائفاً منها، ولطالما كان للطبيعة تأثير في الإنسان وتطور حياته وتبدّلها وتغيّرها، ولطالما كان لها تأثير في ثقافته ومعرفته، إذ إنه يستمدّ منها الغذاء، وفيها يعيش الحياة. والإنساني يصنع في الطبيعي، فتكون العلاقة بين الذات الإنسانية والطبيعة علاقة تواصلية، تحمل قيمة إنسانية بالنظر إلى الفعل الإنساني.

عندما ننظر إلى الموضوع الطبيعي من زاوية العلوم الطبيعية أو ننظر إلى الموضوع الإنساني في حقل العلوم الإنسانية، فإن نظرنا ذلك منطلق من وجود علاقة بين الذات والموضوع لم تنقطع في أي من مراحل التاريخ الإنساني، لكنها كانت ولا تزال تتبدل وتتغيّر وتتطور. إنها تمر بمراحل الملاءمة والتكييف والاستيعاب ما يستدعي توسيع الأطر العقلية والأشكال المعرفية، من أجل فهم الموضوع الواقعي والإحاطة به، وبناء أشكال جديدة من العلاقة بين الذات والموضوع.

المعرفة سلسلة لا تنقطع، فهي نتاج تبصّر العقل وحركته. وبمقدار ما يتحرّك العقل ويشتغل التفكير، تحصل المعرفة وتزداد وتتحصّن، والواقع بدوره لا يستعصي على البحث والباحث، إنما يمثّل بالنسبة إليه مستودعاً للمعرفة، ويتداخل الباحث والواقع،

الذات والموضوع وفق علاقة تبادلية تكيفية تقدم أوجهاً جديدة من المعرفة.

إن هذا الكتاب، يحاول مناقشة، أهمية المعرفة أو التفكير العلمي، ويذهب إلى نقاش مسألة الموضوعية وعلاقتها بالمعرفة العلمية، في محاولة لفهم كيفية اشتغال البحث العلمي في العلوم الإنسانية والاجتماعية، استناداً إلى الفكر العلمي الحديث، الذي انطلق من الضرورة التي احتاجت في مواجهتها (المواجهة بين الفكر العلمي الحديث والفكر الديني منذ انطلاقة الفكر العلمي الحديث، أي منذ الثورة الفرنسية) إلى إبعاد الوعي الإنساني، إلى إيجاد انفصام إنساني، بين إنسان موضوع للعلم وإنسان يبحث فيه، جعل الإنسان الأول موضوع العلم شيئاً جامداً، الإنسان الفرد والإنسان الجماعة حتى يتمكّن الإنسان الآخر من درسه. الثاني جعله بلا وعي، وكان عليه أن ينطلق من واقع أنه يمتلك دماغاً فيزيولوجياً وظيفياً يتحرك من خلاله في البحث. إنه ضرب الإنساني بالإنساني، وتحويله إلى أشياء مخصوصة، لأناس مخصوصين، علماء منجّمين، يفرطون في الفرض والقطع والحكم، باسم العلم الإنساني الاجتماعي، الذي لم يمتلك مشروعيته إلى الآن.

زكي جمعة

الفصل الأول

المعرفة والتفكير العلمي

أ ـ المعرفة، ماهيتها وأنواعها

تـدلُّ كلمـة معرفـة علـى الوعـي الناتـج مـن نظـر العقـل فـي الأشـياء والأشـخاص والأفـكار والنظريـات والمعتقـدات، والأمـور الطبيعيـة، وبذلـك فهـي تعنـي جملـة المفاهيـم والأحـكام والآراء التـي ينتجهـا النـاس فـي دورة حياتهـم واختباراتهـم اليوميـة، منـذ بـدء الحيـاة الإنسـانية، ونشـوء المجتمـع الإنسـاني، وقـد سـاهم فـي ظهـور المعرفـة، التجليـات الاجتماعيـة وتطورهـا فـي سـياق العيـش الفـردي والجمعـي.

وقـد لعبـت هـذه التجليـات دوراً مكثفـاً فـي إنتـاج المعرفـة بأنواعهـا خصوصـاً منهـا الإدراكيـة ومعرفـة الـ«نحـن» والـ«أنتـم»، إضافـة إلـى المعرفـة الثقافيـة والدينيـة والسياسـية والعلميـة المتصلـة بعلـوم الطبيعـة (طـب وكيميـاء، وفلـك، ورياضيـات... الـخ) وعلـوم الإنسـان (أدب، واجتمـاع، وتاريـخ وإعـلام... الـخ). يفيـد ذلـك فـي فهـم ومعرفـة أنَّ المفاهيـم الأساسـية للعلـوم فـي معظمهـا وبعـض الأصـول العلميـة، تشـتقُّ مباشـرة مـن التجربـة الاجتماعيـة التـي عاشـها الإنسـان منـذ البـدء. ففـي نظرتـه إلـى الحيـاة وكيفيـة عيشـها وممارسـته للأخلاقيـات

والمحظورات الخلقية، وفهمه لما هو مقدس ومدنس، أخذت المعرفة لديه تترتب وفقاً لمنظومة إدراكية متغايرة ونامية باستمرار. «إن وجود المجموعات الاجتماعية وتمايزها وتسلسلها، هي التي أوحت للإنسان أفكار الجنس والنوع، وبصورة أعم النظام المنطقي والتنسيقي»[1].

وجاء في القرآن الكريم (يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا)[2]. تلك التراتبية التنسيقية أو النظام التنسيقي الاجتماعي، القائم على الانقسام الجنسي، الذي يتوزّع الأدوار الاجتماعية ضمن الأنساق المجتمعية، الشعوب والقبائل، إضافة إلى التعارف الاجتماعي والثقافي والديني والسياسي. تمثل كلّ التجربة الإنسانية منذ البدء، وهي التي أعطت الإنسان القدرة على التعرف والمعرفة من خلال هذه المنظومة القائمة، أوحت له بالتمييز، وعرّفته الانقسام الجنسي والتمييز بين الجنسين، ووظيفة كل منهما في الحياة. أدرك الإنسان وظيفته ودوره، فردياً وجماعياً، وأحس اتجاه الفرد واتجاه جماعته، عشيرته أو شعبه، وأخذت

---

(١) و. بودون وف. بوريكو - المعجم النقدي لعلم الاجتماع - ترجمة د. سليم حداد، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع مجد، بيروت، الطبعة الثانية ٢٠٠٧ ص ٥٢٩.

(٢) القرآن الكريم، سورة الحجرات، آية ١٣.

بذلـك المعرفـة الإنسـانية تترتـب وفقـاً لمنظومتـه الإدراكيـة الآخـذة فـي النمـو والتطـور.

يتقـرر عـن ذلـك القـول بـأنَّ المعرفـة الناجمـة عـن التجربـة البشـرية، ارتبطـت بشـكل وثيـق بالإحسـاس والإدراك، فكانـت تحـدث ولا تـزال إمـا بالاسـتدلال والاسـتقراء والاختبـار وإمـا بالاسـتنباط.

تنقسم المعرفة إلى قسمين رئيسيين:

الأول المعرفة القبلية، والثاني المعرفية العلمية.

الفكـرة التـي ننطلـق منهـا هنـا فـي قولنـا هـذا، ترتكـز علـى مـا نواجهـه مـن أفعـال وردّات فعـل يقـوم بهـا الإنسـان منـذ اللحظـة الأولـى لولادتـه إلـى لحظـة مماتـه.

تلـك الأفعـال تعبـر بشـكل واضـح عـن امتلاكـه للقبليـات المعرفيـة التـي تمكنـه أولاً مـن التعبيـر عـن دهشـته حيـال مسـائل متعـددة، وثانيـاً تعجبـه حيـال مسـائل أخـرى، فتثيـر الدهشـة والتعجـب لديـه تسـاؤلات شـتى تنقلـه إلـى حقـل البحـث والتنقيـب للوصـول إلـى الإدراك والمعرفـة، وينتقـل تدريجـاً إلـى المعرفـة العلميـة، التـي تأتـي مـن خـلال الاسـتقراء والاسـتدلال والتجربـة والاسـتنتاج وفـق الأصـول والقواعـد العلميـة.

كان الإنسـان ولا يـزال باحثـاً يفتـش عـن معانـي الحيـاة ودلالاتهـا،

يراكم اكتشافاته، ويزيد من معارفه، لتزيد عنده نسبة الحقائق، فينتقل من المعرفة القبلية ومن خلالها إلى عقل الأشياء وفهمها، إلى المعرفة العلمية التراكمية[1].

المعرفة في اللغة، هي التصدّر، مصدر عرفته، أعرفه، وتقال للإدراك المسبوق بالعدم، ولثاني الإدراكين، إذا تخللهما عدم، ولإدراك الجزئي، ولإدراك البسيط، كما في العلم يقال لحصول صورة الشيء عند العقل.

وتقال المعرفة فيما يدرك آثاره، وإن لم تدرك ذاته، والعلم لا يقال إلّا فيما تدرك ذاته.

وتقال المعرفة فيما لا يعرف إلا كونه موجوداً فقط، والعلم أصله أن يقال فيما يعرف وجوده وجنسه وكيفيته. والمعرفة تقال فيما يتوصل إليه، يتفكر ويتدبر، والعلم يقال في ذلك وفي غيره[2].

أنواع المعرفة

تتميز أنواع المعرفة فيما بينها وفق سمات ومرتكزات هي:

---

(١) راجع كتابنا: جمعة، زكي، مركبات التفكير ومناهج البحث العلمي، دار الفارابي، بيروت، ٢٠١٥م.

(٢) راجع: معجم الكليات، معجم في المصطلحات والفروق اللغوية، لأبي البقاء، أيوب بن موسى الحسيني القريمي الكفوي. تحقيق د. عدنان درويش ومحمّد المصري، منشورات ذوي القربى، إيران قم ١٠٩٤هـ.

١ ـ المعرفـة الإدراكيـة: وهـي تحصـل للعالـم الخارجـي، بوصفهـا واقعـة اجتماعيـة تفتـرض أولاً الإدراك الجماعـي للميادين وللأزمنـة حيـث يقـع العالـم. إن الفعـل الاجتماعـي الناتـج مـن الجماعـات، هـو فـي أصلـه فعـل أفـراد، يحصـل فـي أزمنـة وأمكنـة، مليئـة بالعقبـات والتعارضـات والمسـارات، المحتاجـة إلـى كفـاح فـردي وجماعـي للسـيطرة عليهـا، وتجاوزهـا أو التحكـم فيهـا... الـخ.

فيتبـع ذلـك فعـل الوعـي والإدراك، وبالتالـي فـإن العمليـات الإدراكيـة سـواء منهـا الفرديـة أو الجماعيـة تضبطهـا فـي مجملهـا عوامـل جماعيـة توحـي بهـا.

إذا ذهبنـا إلـى القـول، أنَّ فـرداً مـا، لديـه إدراك فـردي، مخصـوص، بعيـد أو منعـزل عـن الجماعـة وعالمهـا، فـي ميادين وأزمنـة، يمكـن أن يكـون عاجـزاً عـن اكتشـاف نفسـه، وسـوف يكـون عنـد حـدود الجنـون أو أقلّـه القلـق النفسـي الـذي يمكـن أن يـؤدي إلـى المـرض، فـإن ذلـك يتيـح لنـا القـول، بـأنَّ الوعـي والإدراك فـي حقـل الجماعـة والتشـارك معهـا فـي صـوغ هـذا الوعـي، يفيـد فـي فهـم ووعـي الـذات الفرديـة والجماعيـة، التـي تعيـش فـي الأزمنـة والأمكنـة الاجتماعيـة.

٢ ـ معرفـة الغيـر: الـ«نحـن» والـ«أنتـم»: لا يمكـن تخيّـل أي إطـار اجتماعـي، أو دورة حيـاة مجتمعيـة، لا يحـدث فيهـا هـذا النـوع مـن المعرفـة، فهـي فـي الأصـل، منشـأ الواقـع المجتمعـي عينـه، لكنهـا

غالباً ما تكون مضمرة أكثر منها معلنة وصريحة، وفي الوقت عينه فهي تتميز بالكثافة المتبادلة. وتمتلك أهمية ومزايا تفيد في تحديد السلوكات والكلمات والمواقف والرغبات والاتصال والانقطاع والتفريق والجمع في كل الأطر الاجتماعية.

٣ ـ معرفة الحس السليم: وهي مرتبطة بدورة الحياة اليومية، وتتأصل وتتجذر في معرفة الـ«نحن» والـ«أنتم»، والعالم الخارجي الذي تدور فيه العلاقات والتعارف والاتصال والاندماج، بوساطة الحواس الإنسانية الفردية والجماعية. وهي معرفة تنمو وترتقي مع الأجيال، وتنزع إلى التعلّق بالعادات والتقاليد، التي عاشتها الأجيال السابقة، وتمارسها الحاضرة. إن الذين سبق لهم أن عاشوا في مجتمعاتهم، وخلفهم آخرون، تواصلوا معهم ونقلوا إليهم معارفهم، وعاداتهم وتقاليدهم وأعرافهم وثقافتهم، ودعوهم إلى الحس السليم، من خلال معرفة وفهم وممارسة الثقافة والعادات والتقاليد والأعراف.

٤ ـ المعرفة التقنية: هي معرفة لها ميزتها المرتبطة بالنزعة إلى السيطرة.

ربما أمكن القول إن أنواع المعرفة السابقة تحمل أيضاً نزعة للسيطرة، في ناحية ما، ولكن ميزة المعرفة التقنية أنها تنزع إلى

السيطرة بقوة التقنية، على العالم واستغلاله؛ ومن يمتلك التقنية الأفعل والأقوى والأمضى إلى جانب الثروة يسيطر.

سعت المجتمعات البشرية منذ القدم إلى إنتاج تقنياتها التي تستطيع بوساطتها إخضاع ما حولها، والتحكّم فيها، ثمّ قهر الغير من الشعوب والأمم، فكانت تتسابق في إنتاجها وتتنافس، حتى أصبح العالم اليوم. تقنياً بامتياز تتحكم فيه التقنيات بحياة الأفراد والمجتمعات، ولم تعد السيطرة مقتصرة على الاحتلال العسكري، أو على الثروات، أو على الأسواق، بل من خلال الوسائط التي حُملت للناس وأخذت تشدهم وتتحكم في دورة حياتهم وعلاقاتهم وميولهم ورغباتهم...الخ.

٥ ـ المعرفة السياسية: هنا ينبغي التنبه إلى أنَّ هذه المعرفة ناجمة عن وعي للعقل الاجتماعي، فطرياً وعملياً، منبثق من صراع ومواجهة اجتماعية متعددة الرهانات. وبهذا فهي معرفة منحازة تماماً، يكون فيها رجال السياسة أقوى من أي أشخاص غيرهم سواء رجال العلم أو رجال الثقافة، أو رجال الدين...الخ.

يمكن رصد المعرفة السياسية بوجه خاص في الأفعال، النزاعات، والصراعات، حيث تقترن المعرفة السياسية لنجاح الممارسين لها بالمعرفة الضرورية لتخطّي العقبات، ولاكتناص الفرص المناسبة، وبالتالي فإن المعرفة السياسية تشكّل صورة

لاندماج وتعاون وانصهار عدة أنواع من المعارف الإدراكية، الـ«نحن» والـ«أنتم»، الحس السليم، والمعرفة التقنية.

٦ ـ المعرفة العلمية: تنطلق هذه المعرفة من أطر علمية هي في جوهرها حصيلة نتائج سابقة، تزعم أنها فوق الالتباس والتشكيك والنقد والنقض، لكنها في حقيقتها تمتلك أو تتمتع باستقلال نسبي، وتحتمل الخطأ مثلما تحتمل الصواب.

إن النقاش في هذه النقطة لا نستطيع أن نوجزه هنا إلا بطريقة غير متقنة نسبياً؛ ففي كل معرفة تتدخل النزعات والآراء والأفكار والمعاملات الاجتماعية، تدخلاً قوياً، قدر ما تكون المعرفة متطورة وقادرة. فهي معرفة تتقدم أساساً بوساطة منطقٍ داخلي متأثر بتلك النزعات والمعاملات. سواء كنا نتحدث عن المعرفة العلمية في إطار العلوم الطبيعية أو نتحدث عنها في إطار العلوم الإنسانية والاجتماعية.

إنَّ التجربة والاختبار اللذين يمارسان في العلوم الطبيعية، هما في جوهرهما عملان إنسانيان، شيمتان إنسانيتان، وبالتالي فهما يعانيان تأثير الإنسان بكل ما يحمل فيهما.

كذلك، فإن أي علم وعمل علمي يحتاج إلى إطار مرجعي، مثلما يحتاج إلى التجربة والاختبار. هذان ثنائيان متلازمان في العلم، وهذا ما يدفعنا إلى القول بأنَّ المرجعية الاجتماعية، بكلّ

مضامينهـا، تدخـل فـي المعرفـة العلميـة وتؤثـر فيهـا، ثـمّ إن مـا ينتـج مـن الاختبـارات والتجـارب، يحتـاج إلـى تعميـم وتعليـم وتعلـم، مثلمـا احتاجـت إلـى بيئـة لإنتاجهـا، وكلّ ذلـك يحـدث فـي دائـرة المجتمـع وليـس خارجـه.

٧ ـ المعرفـة الفلسـفية: تتميـز هـذه المعرفـة بكونهـا فرديـة تتبلـور فـي مذاهــب حاسـمة، وهــذا تعبيــر عــن أزمتهــا. فــي العصــور الســابقة كانـت المعرفـة الفلسـفية تهيمـن علـى كلّ معرفـة أخـرى، وحديثـاً رغـم انفصـال العلـوم عـن الفلسـفة، وظهورهـا بمظاهـر مسـتقلة، لا تـزال المعرفة الفلسـفية تهيمـن، إذ لا يمكـن لأي علـم مـن العلـوم الاسـتغناء عنهـا، أو عمـا يعـرف بعلـم «الأصـول».

ب - التفكير العلمي وأسسه

منذ لحظاته الأولى، يبدأ الإنسان بالبحث والتفكير ومحاولات التحكّم، في استخدام حواسه وعقله، وتلك ماهية لا يمكن تجاوزها؛ معها يبدأ الفحص والنظر والتفكير.

يمثّل جسد الإنسان (الفرد، الجماعة)، وعاء عقله، وعقله هو معنى عمله ومعرفته، فالعلم متلازم مع العقل، كأنهما أصل وفرع، وكلما أتيح للعقل أن ينشغل، توسعت المدارك، وازداد العلم. معنى ذلك أنَّ امتلاك العقل من قبل الإنسان إفادة في القدرة على التفكير والفهم. المسألة هنا تتعلق بكيفية استخدام العقل في تطوير التفكير، والتعلم وإنتاج العلم. ذلك يعني استخدامه برؤية وبصيرة، لدى العامة والخاصة من الناس.

ما يميز الخاصة من العلماء في الميادين كافة، أنهم يشتغلون استناداً إلى نهج علمي يعلّمونه أو يتعلمونه، فيما الخاصة يستخدمون المنهج العلمي والمنطق ببداهة، دون إدراك منهم لذلك.

المهم في هذه النقطة أنَّ هناك تفكيراً، وطرائق بحث وتعلُّم وفهم، إما بداهة وإما عن طريق العلم أو بوساطة العلم، أو أنّها علمية.

ينبني التفكير العلمي على اعتبار أنَّ العلم حالة وجدانية أو نفسية، في العقل الحيّ، والجسد الحيّ، منها تنطلق خطوات العلم، من عقل الحي الممتلك اتجاهات متعدّدة ومتنوعة ومتكاثرة، وتنطلق من عقول متعددة باتجاهات متنوعة. هنا تنبّه، يفيد إلى أنَّ الوصول إلى التفكير العلمي غير ممكن دون الالتفات إلى المؤثّرات النفسية التي تنتج من التجربة الحياتية، وتؤثّر في منطق التفكير وعلميته. إذ لطالما كان الإنسان يميل إلى تصديق ما يرغب أن يكون صحيحاً، بما يؤاتي مصالحه وقناعاته، ويرفض ما يمكن أن يخالف تلك المصالح والقناعات، ثم إنّ الأفكار التي يتحمّلها، ومصادرها الحياتية، وما راكمه من تجربة وخبرة، تترك آثارها على أفكاره، هنا دلالة أساسية ومهمة. إنّ كل التجربة التي يعيشها الإنسان (الفرد، الجماعة) تعكس نفسها على عمليات التفكير، فلا تعود المسألة هنا متفرّدة أو مستقلة. إن عمليات التفكير العلمي مثلما التفكير العادي لا ينفكّ ملازماً للتجربة الحياتية، ومنبثقاً منها. هذا ما يدعو إلى أهمية كيف يمكن لنا في البحث العلمي أن نأخذ في الاعتبار ما سبق من تجارب وأفكار ونستند إليها بدلاً من

التخلي عنها. ذلك ليس ربطاً بتاريخ البحث والعلم والتفكير، بل سبيلاً فعالاً إلى تطور البحث والتفكير. إنّ المعرفة والتفكير ليسا سلسلة متناسقة دوماً، إنما مسيرة نحو الحقيقة، وهي أفق دائم الاتساع للبدائل والمتممات.

يثير هذا الكلام جملة أسئلة حول القطع المنهجي في البحث العلمي والنظرية.

قبل الإجابة عن تلك الأسئلة، أو عرضها والإجابة عنها، نستمر في الحديث عن التفكير العلمي، إذ تقوم أسسه على مجموعة من النقاط:

١ ـ الملاحظة الحسية: فهي تعتبر أساساً في المعرفة والإدراك، تثير الفحص والبحث والتدقيق، هي في الأساس بداهة، يقوم بها الإنسان في كل وقت، تبدأ من لحظة ولادته، وهي في المسار العلمي، أساس للمعرفة، لتنطلق بعدها في الخطوات العلمية اللاحقة، للوصول إلى النتائج. إنّ تقريرنا القيام بالبحث حول كذا وكذا وتحديدنا لموضوع بحثنا، ناجم عمَّا لفتنا من خلال ملاحظتنا الحسية الأولية. إنها نقطة البدء بالبحث وأساسه.

٢ ـ الموضوعية: ويعني ذلك النظر إلى الأمور، والوقائع والأشياء والكلمات، انطلاقاً من موضوعها، بلا انحياز أو تعصب أو تكيّف، إنه نظر إلى الموضوع بما هو، أو بما نراه ونفهمه منه،

دون الالتفاف إلى ما يمكن أن يكون مخالفاً أو موافقاً لأفكارنا ومشاعرنا ومصالحنا، وتلك مسألة نسبية غير إطلاقية.

إنَّ ما يمكن أن يشكل هفوة كبيرة في عمليات التفكير والبحث العلمي، هي تلك الآراء والمواقف المسبقة لدينا، والتي تشكل قوالب فكرية ولفظية، تبعد الباحث عن الموضوعية، وتأخذه باتجاه متصلّب في عمله.

تمثل الموضوعية في التفكير والبحث، رغبة في الحياد، وهو حياد نسبي، لا يمكنه أن يبعد الرغبات والمواقف المسبقة لدى الباحث بشكل كامل، ولكن يمكنه أن يحدَّ من تأثيرهما.

إنَّ ادّعاء الموضوعية، وباسمها يجري الإدماج بين الموضوع والذات، ويعمد المدعي إلى إسقاط ذاتيته على الموضوع، وإلحاق ذاته به، مضفياً الشرعية العلمية على عمله، باسم الموضوعية المدَّعاة. إن هذه الخدعة تطال إرادة الحقيقة العلمية نفسها، بما هي ادّعاء حصري بامتلاك الحقيقة، ثم إنَّ الاتجاه نحو الموضوعية، بما يعنيه من مفارقة للرغبات والمواقف والآراء الخاصة ومرجعياتها، يضعنا أمام قسمة بين ما هو علم وما هو خارج العلم، بتعبير ميشال فوكو[1]، وهذا يعني إضعاف قوة البحث العلمي وإضعاف قوة العلم

---

(١) ميشال فوكو، فيلسوف فرنسي (١٩٢٦-١٩٢٤) تأثر بالبنيويون ودرس وحلّل تاريخ الجنون في كتاب «تاريخ الجنون» وعالج مواضيع مثل =

وإضعاف الوجود الإنساني، إذ لا بحث علمياً خارج حقل الوجود الإنساني، وحقل هذا الوجود هو خارج العلم، فلا علم بلا خارجه أو خارج حقله، وبذلك فإن القسمة تلك تعني نزوعاً نحو التسلط على حقل العلم والبحث العلمي من خلال رؤية الموضوعية أو ادعائها.

ربما يكون في هذا الكلام بعض إجابة عن تساؤلات يمكن أن تثار في مسألة القطع المنهجي. لكن ذلك لا يعني أنَّ ما قلناه هو ضد الموضوعية.

إنَّ ممارسة العلم ترتبط بحقيقة الوجود الإنساني، وكل كلام غير ذلك هو مجافٍ للحقيقة، وإن ممارسة العلم انطلاقاً من رؤية تنتج أساساً من مقاربة الواقع، وملامسته؛ إنّها خلاصة من خلاصات التجربة الاجتماعية التي تُعاش، وهي ترتبط بأسس الفهم، فهي نتاج عمليات ذهنية تمارس فهم الواقع، وهذا الفهم لا يمكن أن يحدث إلا باستخدام الحواس المستند إلى لغة.

٣ ـ الإلمام بأسس المنطق والمنهج العلمي والقدرة على الاستنتاج والاستقراء، وكذلك على التمييز بين المغالطات الناتجة

= الإجرام والعقوبات والممارسات الاجتماعية داخل السجون، وضع مصطلح «أركيولوجيا المعرفة».

من عمليات التضليل المتعددة. فللباحث أن يعمد إلى استبعاد المعلومات التي تكون غير صحيحة، أو غير موثوق بها وفق تقديره (أين الموضوعية هنا؟) ويمكن لها أن تؤثر في عمليات البحث تأثيراً سلبياً، يؤدّي في معظم الأحيان إلى الوقوع في الخطأ. (إنها مسألة الاستنسابية).

٤ ـ أخذ المعطيات والنتائج العلمية السابقة بالحسبان، وهذا يفيد بأنَّ عملية استبعاد المعلومات الخاطئة، لا تعني استبعاد ما توصل إليه العلماء من قبل، إن ما توصّل إليه هؤلاء يمثّل تراكماً علمياً يستفاد منه ويُبنى عليه.

٥ ـ يمكن الإفادة من تحويل الكيف إلى كم، في كثير من الأحيان، وتحليل هذا الكم وتأويله؛ فالعلم في معظم عمله يعبر عن الظواهر بلغة الأرقام. إلّا أنّ العلوم تختلف فيما بينها، من حيث قابليتها للتحول إلى أرقام، فالفلسفة وعلم النفس مثلاً، غير الفيزياء والرياضيات، التي تقوم أساساً وقديماً على الرقم، بينما أخذت الفلسفة وأخواتها حديثاً باستخدامه.

٦ ـ التعميم: يذهب البعض إلى تعميم النتائج التي توصلوا إليها باعتبارها نتائج حاسمة وشاملة، سواء في علوم الطبيعة أو في العلوم الإنسانية، وهذا خطأ فادح، إذ إن النتائج ليست حقائق

جوهرية، ولا هي مطلقة، وإنما تتمتع بالنسبية، وهي وجه من أوجه الحقيقة ويمكن لعالم مجدِّد أن يكشف في بحث له عن وجه آخر من أوجه الحقيقة.

وهكذا، فإن الظواهر التي نبحث عنها في العلوم الطبيعية وفي العلوم الإنسانية والاجتماعية، ينتجها الإنسان. إن سمة البشر والمجتمعات البشرية أنهم في حراك مستمر، وبالتالي ينتجون ظواهر متلاحقة، ويعدلون في ظواهر قائمة ويزيدون عليها، يُعمِلُ ذلك في تبديل وتطوير وتغيير المجتمعات، وفي تقدّمها، لذا فإن ما يمكن التوصل إليه من نتائج تبقى نسبية ومتواترة.

ج - المعرفة العلمية ودور النظرية فيها

المعرفـة هـي فاعليـة بشـرية، وبنـاء منهجـي، تحـدث مـن خـلال حـوار بيـن الـذات والموضـوع، فـي حدوثهـا تغنـي الـذات، وبهـذا فـإن المعرفـة ليسـت شـيئاً ناجـزاً، بـل هـي نتيجـة جهـد عقلـي تفكـري حـواري وفـق آليـات الاسـتقراء والاسـتدلال والتجريـب والبرهنـة.

فالمعرفـة الإنسـانية مـن حيـث هـي كذلـك، معرفـة ممكنـة، ومتكاملـة، وليسـت مسـتحيلة، فهـي تحمـل فـي طياتهـا القـدرات الإنسـانية التـي مكّنتهـا منهـا، مثـل الربـط والتحليـل والكشـف والتأويـل والتفكيـك والتنسـيق... الـخ.

بشـكل عـام تبـدأ المعرفـة مـن سـؤال مـن نـوع مـاذا؟ أو لمـاذا؟ كأن نسـأل لمـاذا حـدث كـذا ولا يحـدث كـذا؟

تذهـب الاتجاهـات والمـدارس المعرفيـة إلـى القـول بـأنَّ الإنسـان يسـلك فـي سـبيل الحصـول علـى المعرفـة، إمـا سـبيل الاسـتقراء وإمـا سـبيل الاسـتنباط؛ فعلـوم الرياضيـات والمنطـق فـي طبيعتهـا وطبيعـة موضوعهـا تمثّـل المعرفـة الاسـتنباطية. إذ ينطلـق الإنسـان

أو العقـل الإنسـاني مـن تعريفـات يكـون قـد توصـل إليهـا عـن طريـق الحـدس والمنطـق فيمـا العلـوم الطبيعيـة والفيزيـاء والعلـوم الإنسـانية والاجتماعيـة هـي فـي طبيعتهـا وموضوعهـا تمثـل المعرفـة الاسـتقرائية. إذ ينطلـق العقـل مـن تعريفـات يكـون قـد وصـل إليهـا عـن طريـق التكـرار المنتظـم والمتابعـة فـي الوقائـع والأحـداث الطبيعيـة والإنسـانية، وبذلـك فـإن علـوم الطبيعـة والإنسـان لا تتضمـن سـوى الاسـتقراء والمعرفـة الاسـتقرائية وهـي تشـتغل وفـق المنهـج الاسـتقرائي، فيمـا علـوم الرياضيـات والمنطـق تشـتغل وفـق المنهـج الاسـتنباطي ولا يوجـد غيرهمـا.

إذا كان الأمر على هذه الحال فمن أين يأتي تعدّد المناهج؟

هـذه المعضلـة علميـة ولّدهـا امتـلاك البشـر لنمطيـن مـن المعرفـة، التـي تولـد منهـا تعـدّد وجهـات النظـر والمعرفـة الفكريـة، مـا يضعنـا أمـام سـؤال: أي مـن السـبيلين يصـح اعتمـاده؟ أو أيّ منهمـا الأصـح؟.

يمكـن أن نتوقـف هنـا عنـد مقولـة أنَّ كل معرفـة هـي خاطئـة أمـام الأخـرى، وتقـع خـارج المعرفـة المطلوبـة. علـى هـذا الأسـاس تكـون المعضلـة العلميـة مسـتحيلة الحـل، وهـي تعبِّـر عـن نفسـها فـي محـاولات منهجيـة مسـتمرة تأخـذ علـى عاتقهـا مهمـة نقـد المعرفـة الاسـتقرائية والدعـوة إلـى المعرفـة الاسـتنباطية فـي العلـوم الطبيعيـة والعلـوم الإنسـانية والاجتماعيـة، مـع أنَّ هـذه العلـوم فـي طبيعتهـا

وموضوعها هي استقرائية، فهل تنجح المحاولة في تقديم البديل للمنهج الاستقرائي؟

حتى الآن، يمكن أن نقول، لا يمكن ذلك، لأنَّ ما ينتج من نقد المعرفة الاستقرائية لا يعد أكثر من انتقال إلى المعرفة الاستقرائية نفسها، التي تتطوّر وتتنوّع وتتعدّد وتصبح أكثر مناعة من خلال ما توجهه بدورها إلى المعرفة الاستنباطية. بمعنى آخر، ما يُقال عنه في العلوم الطبيعية والعلوم الإنسانية والاجتماعية إنه منهج استنباطي، لا يمثّل في الواقع أكثر من نقد للمنهج الاستقرائي بوساطة الاستنباط، الذي يتّخذ أشكالاً متعددة مثل المنهج التجريبي والمنهج العقلاني والمنهج الوظيفي والمنهج الكمي والمنهج الكيفي... الخ.

السؤال هنا، هل أنَّ نقد المنهج الاستقرائي هو الذي ينتج تعدد المناهج في العلوم الطبيعية والعلوم الإنسانية والاجتماعية؟ وأنَّ النقد هو خارج المنهج المستهدف، أم داخله؟ هل أمكن إلغاء الاستقراء؟ أم أنه بقي واستمر؟ ولماذا استمر؟ أو ما جدوى النقد في هذه الحال؟

تسللت فكرة تعدّد المناهج من أبواب مختلفة، إلى حقول المعرفة، حتى بات يقال إن لكلّ علم منهجه، بل مناهجه ومنهجياته الخاصة والمتناسبة وطبيعة البحث، وهناك من يقول إنّ لكلّ ميدان

من ميادين العلم عينه منهجاً خاصاً أو عدة مناهج خاصة ومنهجيات متناسبة. وغالباً ما يجري إعداد الطلاب إعداداً شاقاً تحت اسم التأهيل المنهجي، وأصبحت المعرفة المنهجية تحتل مكانة أرفع وأقصى من المعرفة نفسها، وباتت كلّ معرفة مرفوضة في المنهج العلمي المعاصر، ما لم تكن قد وجدت من خلال الضوابط المنهجية التي يضعها، وهنا ضرب من ضروب إلغاء الذات وحركة الفكر لدى الباحث في البحث العلمي، ويقال بهذا يصبح الباحث محايداً، تلك فكرة، جرى العمل عليها في مجال العلوم الطبيعية والطبية، من خلال تشكيل فرق بحثية، تعمل بشكل جماعي، ما يستبعد ذاتية العالم أو الباحث.

كذلك فقد تسللت هذه المسألة إلى العلوم الإنسانية والاجتماعية بما فيها الآداب والفلسفة والإعلام والتوثيق... الخ. سنتحدث أكثر حول تعدد المناهج لاحقاً في الفصل الخاص بذلك.

ثم أصبحت المعرفة الكمية هي المعرفة المثلى، واحتلت مكانة مقدسة علمياً وعملياً؛ وأصبحنا أمام سيادة الرقم؟ حتى باتت العلوم وميادينها مستعدة للتخلي عن المستوى الوصفي للظواهر والوقائع، تمثل وسائل المشاهدة ووسائط التواصل الاجتماعي نموذجاً لانتفاء الفواصل، واكتشاف ظواهر جديدة ذات صيغة

كميـة. وذلـك بشـكل تقنـي أخـذ يتطـور تدريجـاً. السـؤال هنـا، مـا الـذي يمثلـه الرقـم؟ ونحـن نعلـم أنَّ كل رقـم مجـرد لا يمكـن أن يمثّـل شـيئاً مـا لـم يكـن هويـة أي مصحوبـاً بـكلام أو أفـكار أو تحليـل... الـخ. وبهـذا نكـون أمـام معرفـة مـن نـوع آخـر أو معـارف أخـرى، إذ لا يمكـن إنتـاج المعرفـة مـن زاويـة أو وجهـة واحـدة.

بهـذه المعرفـة أعلـن الإنسـان سـيادته علـى العالـم، وبهـا أخـذ يتسـلطن علـى سـائر الموجـودات، فقـد عمـد إلـى اسـتخدام قدراتـه العقليـة ومـا يمتلـك مـن إمكانـات حسـية ونفسـية للملاحظـة والاسـتقراء والقيـاس، مـن أجـل فهـم كثيـر مـن الظواهـر ومعرفـة كيفيـة السـيطرة عليهـا وتسـخيرها.

هنـا نكـون أمـام العقـل مـرة أخـرى، إذ إن اسـتبعاده لـم يكـن ممكنـاً؛ فـكل العمليـات العلميـة والمعرفيـة لا يمكـن لهـا أن تكـون فـي حـال غيـاب العقـل أو تغييبـه. هـذه مسـألة حيويـة فـي مجـال المعرفـة والعلـم.

يلعـب العقـل الـدور الأسـاس فـي التوجّـه نحـو إنتـاج المعرفـة والانطـلاق البحثـي، ولا يمكـن تخطّـي ذلـك؛ فـكل معرفـة لا بـدّ وأن ترتكـز علـى نظـر وتجربـة، نبـدأ بالسـؤال أو التسـاؤل، ثـم ننتقـل إلـى بلـورة وجهـة نظـر ونخـوض تجربـة البحـث، تلـك حـوارات بيـن

الذات وذاتها وبين الذات والموضوع. وبذلك فإن للنظرية دوراً في المعرفة وإنتاجها.

ما النظرية؟ وما التجربة؟

١ ـ النظرية: هي الأفكار التي تتبلور في إطار مفاهيمي في العقل، ما بعد فعل النظر والمشاهدة، إنها إطار ما بعد النظر، الذي يحمل تفسيراتٍ وأفكاراً تحتمل خطر الترشيد المفرط للباحث، وتدفعه إلى الابتعاد عن الواقع أحياناً، وهذا ما يفسر بالقول، إن هناك تعارضاً بين النظرية والممارسة.

كذلك لا تكون النظرية تفسيرية دائماً، وإنما يمكن أن يكون لها منحى تأويلي، بمعنى أنها تنتقل من مرحلة الفهم إلى مرحلة ممارسة عمليات الفهم، كشكل من أشكال الصعود.

يرتدي مفهوم النظرية في العلوم الإنسانية والاجتماعية معانٍ متعددة وربما أكثر تنوعاً منها في العلوم الطبيعية؛ ففي الوقت الذي اتجهت العلوم الطبيعية نوعاً ما إلى الاستغناء عن النظر والمشاهدة المباشرة ولجأت إلى الرياضيات في اصطناع مشاهدات جديدة، ولم يعد العلم الرياضي مجرد أداة تفسير كمّي فقط، بل أصبح أداة صوغ لمشاهدات اختبارية جديدة، يقيمها العالم أو الباحث في المختبر أو العمل في شروط رياضية مسيطر عليها، بقيت

العلـوم الإنسـانية والاجتماعيـة تعتمـد بشـكل أساسـي علـى المشـاهدة المباشـرة للوقائـع الإنسـانية[1].

غالبـاً مـا يميـل العلمـاء فـي علـوم الإنسـان والاجتمـاع إلـى اسـتعمال النظريـة كمـرادف لكلمـات مثـل المنهجيـة، والأفـكار الموجهـة، وتحليـل المفاهيـم، والتفسـيرات اللاحقـة، والتعميمـات التجريبيـة، والاشـتقاق، والتقنيـن، والنظريـة (بالمعنـى الضيـق للكلمـة).

إن اسـتعمالاً للمفهـوم (بالمعنـى الضيـق للكلمـة) أي لمجموعـة مـن المقترحـات التـي تشـكّل نظامـاً، لا يعفـي مفهـوم النظريـة مـن امتلاكـه مجموعـة مـن المقترحـات أو الأحـكام مـا بعـد النظريـة المتعلقـة باللغـة الواجـب اسـتعمالها لمعالجـة الحقائـق الاجتماعيـة. أي إنهـا ليسـت مقترحـات حـول الحقيقـة الاجتماعيـة، وإنمـا حـول النظريـات الخاصـة بالحقيقـة الاجتماعيـة.

ثمـة كلام حـول مفهـوم النظريـة المسـتخدم فـي العلـوم الاجتماعيـة (بالمعنـى الواسـع للكلمـة)، باعتبارهـا مجموعـة مـن النمـاذج الإدراكيـة، التـي يمكننـا تسـميتها بالنمـاذج التصنيفيـة، بمـا أنهـا تسـتند غالبـاً إلـى تصنيـف، مثـل التعـارض بيـن الجماعـة والمجتمـع،

(١) منيمنة، د. جميل، المنهج المعاصر، مجلة الفكر العربي، العدد ٥٥، السنة العاشرة، كانون الثاني وشباط ١٩٨٩، معهد الإنماء العربي، بيروت، ص ٩٨.

وهناك نماذج تصنيف تحت عنوان النماذج القياسية. في هذه الحال يوحي «المنظر» أنَّ مجموعة من الظواهر الاجتماعية المحصورة إلى حد ما ولكنها عديدة، يمكن أن تعتبر وكأنها خاضعة لأواليات مشابهة لتلك التي تميّز إما أنواعاً أخرى من الظواهر الاجتماعية وإما ظواهر ترتبط بغير علم الاجتماع.

وهناك مجموعة ثالثة يمكن تصنيفها تحت عنوان النماذج الشكلية، وبخلاف النوعين السابقين، تتضمن النماذج الشكلية مؤشرات نحوية أكثر مما هي دلالية، على الطريقة التي تبنى بها نظريات علم الاجتماع (بالمعنى الضيق للكلمة)، أو أن تقاد بها التحليلات المتعلقة بهذا النوع أو ذاك من الظواهر الاجتماعية. في أغلب الأحيان، ثمة ممارسات في البحث نجد أساسها في نماذج شكلية ضمنية. وهكذا فإن جزءاً مهماً من علم الاجتماع التجريبي يكون غرضه إقامة النفوذ النسبي لمجموعة من المتغيرات التفسيرية (موصوفة بأنها مستقلة) على مجموعة من المتغيرات المطلوب تفسيرها (موصوفة بأنها تابعة)، وأن يلجأ الباحث إلى تحليل متعدد التنوع، وإلى تحليل للتراجع ذي المعادلات المضاعفة، وإلى تحليل الصلات أو أية أداة إحصائية أخرى، فإنه يستعمل بذلك نموذجاً شكلياً ضمنياً.

مثلما في العلوم الطبيعية تظهر النظرية في العلوم الاجتماعية

كأنهـا وهبـت حيويـة كبـرى أو جمـوداً كبيـراً حسـب وجهـة النظـر التـي تنتمـي إليهـا أو تتبناهـا وباعتبارهـا تشـكل الإطـار الثقافـي للطـلاب والباحثيـن الثانوييـن.

إن السبب الرئيسي لهذا الجمود يتمثل في أمور ثلاثة:

أولاً: مـن الممكـن بصـورة دائمـة تقريبـاً ترميـم نظريـة مبنيـة فـي إطـار نمـوذج بطريقـة تسـمح لهـا بتفهـم الملاحظـات التـي تبـدو للوهلـة الأولـى متلائمـة بصعوبـة معهـا.

ثانيـاً: ينبغـي لكـي يجـري التخلّـي عـن نمـوذج أن يتوافـر نمـوذج أكثـر إقناعـاً أو إفـادة، وإلّا يجـد الباحـث نفسـه فـي وضـع مرتبـك: إن عـدم وجـود نمـوذج يرشـده، يفقـد نشـاطه وجهتـه، ويصبـح مـن المسـتحيل التقريـر بشـأن الملاحظـات التـي يقتضـي الشـروع فيهـا.

ثالثـاً: إن التخلّـي عـن نمـوذج معيـن يكـون بصـورة عامـة مكلفـاً اجتماعيـاً بالنسـبة إلـى الباحـث، لذلـك تعتبـر النمـاذج نوعـاً مـن الحـراس ذي الوجهيـن، ولكونهـا لا غنـى عنهـا للبحـث، يميـل الباحثـون إلـى إعطائهـا فعاليـة وشـمولاً مغالـى فيهمـا. لذلـك يمكنهـا فـي كثيـر مـن الأحيـان أن تلعـب دوراً خطيـراً مثلمـا قلنـا بدايـة، وهـو الإفـراط فـي التوجيـه والترشـيد للباحـث، كمـا أنهـا يمكـن أن تلعـب دوراً كابحـاً.

إن مفهـوم النظريـة مثلمـا هـو مسـتعمل فـي علـم الاجتمـاع يتضمّـن

حقائـق مـن الأفضـل تسـميتها نمـاذج مـن جهـة أولـى، ونظريـات بالمعنـى الضيـق للكلمـة مـن جهـة أخـرى[1].

هـذه النقـاط التـي عرضناهـا تشـكل عناصـر أوليـة للمنهـج العلمـي الموضوعـي الحديـث، فمـا مـدى ملاءمتهـا مـع الأبحـاث الاجتماعيـة؟

لماذا نطرح هذا السؤال؟

أولاً: لأننـا نفضـل النظـر بدايـة إلـى هـذه النقـاط فـي لحـاظ نتائجهـا وليـس فـي لحـاظ منطلقاتهـا، لأنَّ مثـل هـذه النظـرة، تؤمـن لنـا فهـم حقيقـة هـذه النقـاط، مـن حيـث دقائقهـا العمليـة قبـل الغـوص فـي أصولها الفلسـفية العامـة، الـذي يحيلنـا إلـى تاريـخ النظريـات الفلسـفية.

ثانيـاً: لأنَّ هـذه النقـاط تندفـع مـن حيـث ديناميتهـا الذاتيـة إلـى اقتحـام ميادين مختلفـة، إذ مـا ينطبـق فـي مـدار العلـوم البحتـة لا بُدّ مـن أن ينطبـق علـى وقائـع العلـوم الإنسـانية والاجتماعيـة.

إنّ سـؤالاً فـي الأسـاس نطرحـه إلـى أي حـد تختلـف النظريـات فـي العلـوم الاجتماعيـة والإنسـانية عـن النظريـات المقترحـة مـن قبـل علـوم الطبيعـة! إلـى أي حـد تكـون قابلـة للتحقـق؟ إن مسـألة التطابـق لا بـدّ منهـا وإلا اختـل مبـدأ العلـة الكافيـة الـذي ينطلـق منـه النظـام المعرفـي الحديـث، أو تسـتند إليـه نظريـة المعرفـة الموضوعيـة.

(١) راجع: ر. بودون، وف. بوريكو، المعجم النقدي لعلم الاجتماع، ترجمة د. سليم حداد. م. س. ص ٥٧٦ و٥٧٧ و٥٧٨.

ذلـك أنَّ هـذه العلـة لا بـدّ مـن أن تعطـي، وبالتالـي علـى العقـل الحديـث أن يحسـب كل شـيء، وبهـذا المعنـى، مـن الضـروري للإنسـان الـذي يحسـب وقائـع الطبيعـة مـن أن يحسـب علاقاتـه ووضعيـات حياتـه الاجتماعيـة، المسـألة هنـا ليسـت شـكلية، إننـا أمـام مداريـن:

الأول: مدار الطبيعة.

الثاني: مدار الوجود الإنساني.

الطبيعة مقابل المجتمع – الفرد.

(الوجود الإنساني) – (الوجود المقابل).

فإمـا أن تعمـم السـببية وتنفـذ مـن مـدار الطبيعـة إلـى مـدار الوجـود الإنسـاني، وإمـا يكـون مبـدأ العلـة الكافيـة ناقصـاً، وهـو لا يسـتطيع أن يكـون ناقصـاً، لأنـه مـن حيـث ذاتـه، ضـروري وشـامل.

مـا نريـد التركيـز عليـه هنـا، أو الإشـارة إليـه أكثـر، هـو أنَّ الفكـر الاجتماعـي الحديـث ليـس ثمـرة محاولـة إبداعيـة للنفـاذ إلـى المـدار الإنسـاني مـن قبـل الفكـر الموضوعـي، بـل إنـه نـوع مـن التقليـد والمحـاكاة لأسـاليب العلـوم البحتـة. وهـذا التقليـد هـو الـذي يصبغـه بالدونيـة، ولـن يسـتطيع التخلـص منهـا أبـداً.

بالنسـبة لنـا هـذا الأمـر بالـغ الأهميـة، إنـه يسـتدعي منهجاً يسـتند إلـى التواصـل بيـن الإنسـاني والمعطـى الطبيعـي العـام. هـذا التواصـل يجعـل العلـوم الإنسـانية والاجتماعيـة، علومـاً تسـتند إلـى التاريـخ،

والتاريخ لا يبدأ بالوعي، بل من المعطى الفيزيولوجي الطبيعي: تطور الدماغ.

هكذا نعود إلى رؤية داروين المؤسس الفعلي للحداثة ونظريته، الإنسان حلقة من سلسلة طبيعية تتطور في الزمان (البعد الطبيعي التاريخي) فتكون الطبيعة الإنسانية قابلة للتفسير بوصفها جزءاً من المعطى الفيزيولوجي التاريخي، وفي ذلك استبعاد لخصوصية الطبيعة الإنسانية والوعي الإنساني.

لا نريد الخوض كثيراً هنا في هذه المسألة، بقدر ما نريد أن نبين دور النظرية في البحث العلمي، من خلال ما تقوم به من تدخل يحيل الواقع إلى موضوع للبحث، ما الذي يجعل الواقع موضوعاً للبحث؟ إنها المعادلات الاجتماعية، مضاف إليها معادلة الباحث الشخصية.

في النتيجة يمكن التمييز بين نوعين من النظريات: ١- النظريات العامة، ٢- النظريات الخاصة، فمثلاً الماركسية نظرية عامة في التاريخ. أما النظريات الخاصة فهي التي يمتلكها أفراد تكون لديهم رؤية خاصة للأمور والموضوعات تعبر عن فهمهم لها.

التجربة: تدلّ على لقاء العقل وواقع خارجي، وفي مجال

المعرفة العلمية تعني إعادة إحداث ظاهرة ما، تمتّ ملاحظتها مسبقاً في شروط محددة، لدراستها من أجل معرفة قوانينها المتحكّمة.

هناك نوعان من التجربة، تجربة الفكر والتجربة في الواقع.

أ ـ تجربة الفكر تلك التي تبدأ لحظة الولادة. إن الإنسان عند ولادته يستعيد بصره فجأة ويصطدم بواقع مختلف، عندها تنطلق تجربته الفكرية، وتنطلق مخيلته التي لن تتوقف حتى لحظة مماته، إنها عملية استبدال تجربة فعلية بالمعنى الضيق للكلمة، بتمثلات موقف يجري إسقاطه. فلطالما استخدم الإنسان تلك التجارب سواء بديهياً أو علمياً، منذ أن كان.

في كثير من الأحيان تلعب المخيلة دوراً حاسماً في تنشيط الحدس أو في اتخاذ المواقف وتشكيل التصورات وبناء التفسيرات، وبذلك فإن التجربة الفكرية تلك قادرة على التأثير في النظرية، أو إنها قادرة على إحداث أزمة في النظرية.

بهذا المعنى تتيح التجربة الفكرية تشكيل المفاهيم عن العالم مثلما تتيح بناء النظرية العلمية.

ب ـ التجربة في الواقع: أو التجربة الميدانية، يتميز هذا النوع من التجارب بصعوبة ضبط المتغيرات المدروسة كافة، لكنه يوفر مضموناً غنياً.

في علم الاجتماع، يُستعمل غالباً بديلان عن التجريب،

الأول هو التحليل السببي، ويقوم على مقارنات منظمة لها وظيفة التجريب غير المباشر.

الثاني هو التحليل الصوري أو التحليل شبه التجريبي الذي يلعب دوراً أساسياً في تحليل النظم المعقدة للعلاقات.

فلسفياً، تثار مسألة التجريب على صعيد التنازع بين التجريبية والعقلانية، فهل ينبغي اعتبار التجربة أصل المعارف؟ وبالتالي يعمل على تهميش العقل.

واقعياً إن التجربة بحاجة إلى الانطلاق إلى نظر العقل، كما أنَّ النتائج التي تتوصل إليها التجربة تحتاج إلى التفسير والتحليل والتأويل والنقض والنقد والضبط... الخ. وهذا دور العقل.

في علم النفس، أراد العلماء الأوائل إحداث قطيعة مع التأمل الفلسفي والاستبطان، وجعل علم النفس علماً تجريبياً، لكن ذلك يثير جملة من التساؤلات، إذ كيف يمكن دراسة الأحداث الإنسانية فقط في المختبر؟ في حين أنَّ المخيلة والعلاقات الاجتماعية، والصراع والمشاعر والأحاسيس هي أفعال في الحياة اليومية.

ثم إن التجريب في علم النفس يفترض عزل الفرد عن الأحداث، وتجزئتها، في حين أنَّ ردود فعل الفرد غالباً ما تكون مرتبطة بهذه الأحداث وهي بديهية وشاملة.

فـي العلـوم الاجتماعيـة كان إميـل دوركهايـم يحلـم فـي أن يجعـل علـم الاجتمـاع، علمـاً تجريبيـاً، علـى غـرار علـم الأحيـاء معتبـراً أنَّ العلـم الاجتماعـي، ولأنـه يتخـذ الأشـياء موضوعـات، لا يمكنـه إلّا أنَّ يسـتخدم المنهـاج التجريبـي حتـى يكـون ناجحـاً.

السـؤال هنـا، هو حـول الموضوعـات الاجتماعيـة والإنسـانية والظواهر والوقائـع كيـف لهـا أن تكـون أشـياء؟ فيمـا هـي أفعـال النـاس وحراكهـم، دوركهايـم درس الانتحـار، هـذه الدراسـة حصلـت مـن خـلال التجريـب، أو استناداً إلـى المنهـج التجريبـي؛ التجريـب يفتـرض إحـداث الظاهـرة مجـدداً، ضمـن الظـروف والشـروط عينهـا، هـل أمكنـه ذلـك؟!.

إذا أمكـن إعـادة بنـاء الأحـداث بشـكل اصطناعـي، وفـق الظـروف والشـروط نفسـها، أو وفـق مـزاج الباحـث فـإن المنهـاج التجريبـي صحيـح بـكل معنـى الكلمـة فـي البحـث الاجتماعـي. أمـا إذا لـم يكـن بمقـدور الباحـث إعـادة إنتـاج الأحـداث، فـإن ذلـك يدعـو إلـى التسـاؤل عـن جـدوى المنهـاج التجريبـي المباشـر هنـا.

نعـم، بالإمـكان العمـل وفـق آليـة التجريـب غيـر المباشـر أو وفـق المقارنـة فـي حـال أمكـن إحـداث نمـوذج مماثـل أو قريـب للحـدث.

فـي هـذا الإطـار مـا هـو دور العقـل فـي العمليـات التجريبيـة؟

ومـا دور العقـل فـي المعرفـة؟ إذا كانـت المعرفـة نتـاج العمـل العلمـي التجريبـي.

أمكــن اســتخدام العقــل وإمكاناتــه، القيــام بالاســتقراء، والانتقــال مـن العينـي إلـى المجـرد، وبـات الإنسـان يفهـم أنَّ مـا شـاهده مـن أنـواع الأشـجار واحتفـظ لـه بصـورة فـي ذهنـه هـو شـجرة، وأنَّ كلّ واحـدة فـي الواقـع لهـا ميزتهـا. لقـد حـول رؤيتـه العينيـة للشـجر إلـى صـورة مجـردة فـي الذهـن، وهـذه معرفتـه التـي توصـل إليهـا بِتفكـر وتدبـر.

تعتبـر التصـورات العقليـة شـديدة الحضـور فـي العلـوم، لكنهـا غيـر مرئيـة، فهـي حاضـرة باسـتمرار وبنسـب معينـة، تعالـج هـذه التصـورات كل النشـاطات المعرفيـة.

عمليـاً، عندمـا يريـد الباحـث أن يقـوم ببحـث حـول موضـوع مـا، فإنــه ينطلــق ببحثــه مــن الملاحظــة، يجمــع المعلومــات والمعطيــات، ثــم ينطلــق إلــى الميــدان. إنــه هنــا يدخــل حقــل التجريــب والمقارنــة، والبحــث الميدانــي، تلــك المســألة حصلــت انطلاقتهــا ممــا حــدث مــن تنبهــات وتصــورات وتمثــلات فــي العقــل، وأدى إلــى فكــرة أوليــة أو تســاؤلات حــول الموضــوع. يعنــي ذلــك أنَّ حقــل التجريــب يحتــاج أولاً إلــى النظــر والمعرفــة، ومــن ثــم عنــد حصولــه علــى النتائــج أو توصلــه

إليهـا، هـو أمـام خياريـن: إمـا تركهـا كمـا هـي، وإمـا تحليلهـا وتفسـيرها، وهـذا يحتـاج إلـى الفهـم والتفسـير والتأويـل والنقـد والتفكيـر... الـخ.

فـي حقـل المعرفـة العلميـة، تترابـط عمليـات التفكيـر بالحـوار الـذي يتـم بيـن الـذات وذاتهـا وبيـن الـذات والموضـوع، فتتشـكل الرؤيـة أو النظريـة حولـه، وبذلـك فـإن النظريـة هـي حصيلـة جهـد عقلـي معرفـي متصـل.

د- الموضوعية والمعرفة العلمية

تمتدّ المعرفة العلمية إلى مجالات تتسع باتساع التخصصات سواء في العلوم الطبيعية أو في العلوم الإنسانية والاجتماعية.

تذهب العلوم الإنسانية والاجتماعية إلى دراسة التجربة الاجتماعية، باعتبارها ظواهر قابلة للمعرفة، تتطور هذه المعرفة بتطور التجربة ونمائها، إلّا أنها ستبقى عمومية بالإجمال، طالما هي نشطة في حقل التجربة الجماعية؛ هذا من جهة، ومن جهة ثانية، ستحولها عمليات التحليل الكمّي والتحليل الكيفي من نماذج مثالية إلى معرفة بالوقائع.

هنا سؤال حاد، هل يمكن لهذه العلوم ادّعاء الموضوعية؟ وما مدى قدرة المعرفة وعلم اجتماع المعرفة على تحقيق طموحها إلى الموضوعية؟

تصاغ النظريات داخل النموذج، ودائماً هناك احتمال قوي ألا تكون هذه النظريات متلائمة، فلا يمكن اعتبار إحداها صحيحة دون قيد أو شرط، وما يمكن أن نراه نحن صحيحاً، يمكن أن يراه

آخـرون غيـر صحيـح، طالمـا أنَّ كلّ واحـد منـا يفكـر ويفهـم ويسـتند إلـى مرجعيـة مختلفـة، ولديـه قـدرة علـى التفسـير بطريقـة مختلفـة، وهكـذا، تبقـى مسـألة الصدقيـة التـي تحتـاج إليهـا النظريـة، معلقـة لأنَّ المعرفـة غيـر قـادرة علـى حسـم وتحديـد صحـة أو صدقيـة أو درجـة صدقيـة هـذه النظريـات. والوقائـع التـي نذهـب إلـى دراسـتها، توحـي باسـتمرار أنهـا منفصلـة مـن جهـة ومترابطـة مـن جهـة أخـرى. يـؤدي ذلـك إلـى إسـاءة التفسـير والتحليـل وعـدم القـدرة علـى تنقيتـه، فهـو دائمـاً مرتبـط بالأفـكار والفهـم، وفـي الحالتيـن كليهمـا تكريـس لذاتيـة الباحـث بنسـب مختلفـة.

يفتـرض العلمـاء المشـتغلون فـي حقـل العلـوم الإنسـانية والاجتماعية، أو كثيـر منهـم، أنهـم يبتعـدون عـن الذاتيـة، عندمـا يتبعـون المناهـج العلميـة الصارمـة فـي دراسـتهم (إن تقريـر اتبـاع منهـج معيـن مـن قبـل الباحـث، أو تقريـر القيـام بدراسـة معينـة والسـير بهـا هـو قـرار مرتبـط بذاتيـة الباحـث أصـلاً قبـل كلّ شـيء)، وإن اتجاهـاً نحـو المنهـج التجريبـي، يُغنـي عـن التأمّـل والتصـوّر، اللذيـن يكرسـان ذاتيـة الباحـث، وقـد أخـذ علمـاء الاجتمـاع خصوصـاً (ذوي الأصـول الغربيـة) يحـددون آليـات البحـث العلمـي، الـذي يحيلنـا إلـى مـا يمكـن اعتبـاره المعرفـة الموضوعيـة، بارتكازهـا علـى مبـدأ العلـة الكافيـة:

الضرورة: الإمكان.

النظرية: أولوية النظرية.

الفرضية: نظام الفرضيات.

التجربة: التدخّل في الواقع.

طريقة المقارنة.

النتائج: الحقيقة كنظم متكاملة.

شكلت هذه النقاط العناصر الأولية للمنهج العلمي الموضوعي المعاصر.

ثمة حقيقة لا يمكن تجاوزها، وهي أنَّ هذا المنهج نشأ وتتطور في العلوم البحتة، والسؤال الذي يُطرح هنا: هل يلائم هذا المنهج العلوم الإنسانية والاجتماعية؟ وهل ينبغي أن نُسلّم بلا نقاش مع إميل دوركهايم وكارل ماركس وغيرهما في هذا الشأن؟

أتاح الارتكاز على مبدأ العلة الكافية لهذا النظام المعرفي الاندفاع من حيث ديناميته إلى اقتحام ميادين جديدة، إذ إن ما ينطبق على العلوم البحتة، لا بُدّ وأن ينطبق على العلوم الإنسانية والاجتماعية طالما تعتمد المبدأ نفسه، وإلّا حصل الخلل بالمبدأ.

هنا حصل عبور من العلم الطبيعي إلى العلم الإنساني، إنه عبور الضرورة والإمكان. تلك نقطة ارتكاز مغامرة الحداثة

الأوروبيـة، العبـور مـن خصوصيـة الإنسـان وانفصـال الدينـي عـن قوانيـن الموجـودات إلـى مبـدأ السـببية المعمّمـة، إلـى الموضوعيـة فـي العلـوم الإنسـانية والاجتماعيـة.

ليسـت مسـألة فصـل الدينـي عـن الدنيـوي، بمعنـى تحييـده عـن السياسـة والحكـم، وإنمـا كذلـك تجريـد الفـرد مـن إمكانيـات منطقـه الداخلـي.

شـكّل الانفصـال عـن الدينـي فـي توليـد الحداثـة، ضـرورة، فـكان التصدي للفكـر الدينـي مـن خـلال الفكـر العلمـي باسـتخدام مناهـج العلـوم البحتـة، فـي العلـوم الإنسـانية. تميـزت هـذه المواجهـة بعـدة خصوصيـات كان أهمهـا:

١ ـ إنّ نـواة الفكـر العلمـي (الموضوعـي) تمثّلـت فـي الإجابـة عـن سـؤال هـام حـول موضـوع علـم الاجتمـاع؟ فـي أنَّ المعرفـة العلميـة عمومـاً، والمعرفـة العلميـة الاجتماعيـة خصوصـاً، ترتبـط بمصالـح الفاعليـن الاجتماعييـن، ولهـذا فـإن علـم الاجتمـاع يسـتمد قيمتـه المعرفيـة مـن مصالـح الفاعليـن الاجتماعييـن، الذيـن يتصرفـون بحكمهـا وبموجبهـا؛ كان ذلـك ضروريـاً، إذ إن المعرفـة تشـترط لإثبـات علميـة أيّ مـن العلـوم مـن ضمـن مـا تشـترط أن يكـون للعلـم موضوعـه الخـاص.

٢ ـ أن ينطلــق العلــم الموضوعــي (الإنســاني والاجتماعــي) مــن الضــرورة والإمــكان، اللذيــن يســتدعيان الحســاب الكمــي. يعنــي ذلــك أنَّ الفكـر الاجتماعـي لـن ينطلـق مـن مبـدأ العلـة الكافيـة وإن اسـتند إليـه، بـل مـن مبـدأ الضـرورة. (لاحقـاً سـوف تتجـه العلـوم الإنسـانية إلـى الحسـاب الاحتمالــي).

هــل يكفــي ذلــك للتســليم بصدقيــة العلــوم الإنســانية والاجتماعيــة وموضوعيتهــا؟

ثمّــة تنبيــه هنــا، حــول مــا يمكــن أن نســميه العلــم الإنســاني ضــد الوعـي الإنسـاني أو المنطـق الداخلـي للإنسـان. إن إجـراءات مثـل الضـرورة والإمـكان تقتضـي إلغـاء الوعـي الـذي اعتبـر مـن ترسـبات الفكـر الدينـي.

إذن، لقـد تبدلـت النظـرة إلـى الإنسـاني، وأصبحـت جـزءاً مـن الوجـود الطبيعـي العـام، جـزءاً مـن الأشـياء الموجـودة، ولهـذا جـرى التعامـل معـه كشـيء، وشـدّد المؤسسـون لعلـم الاجتمـاع وفـي مقدمهـم إميـل دوركهايـم علــى أنَّ العلــم الاجتماعــي يتّخــذ الأشــياء موضوعــات لــه، وبهــذا اعتبــر الإنســان وحراكــه ومــا ينتجــه فــي الميادــن الاجتماعيــة أشــياء تُــدرَّس، أو قابلـة للدراسـة. وبذلـك أصبـح الإنسـاني موضوعـاً للعلـم، وبـات ينظـر إلـى الأمـر باعتبـاره بداهـة. هـل الأمـر علـى هـذا النحـو؟ وهـل ينبغـي أن نُسـلّم بذلـك؟

ليس الأمر بديهياً على الإطلاق، لماذا يكون الإنسان موضوعاً للعلم؟ ولماذا يكون حيثية من حيثياته؟ الجواب عن ذلك، هو أنَّ ما اقتضى اعتباره هكذا، هو ضرورة الانفصام، انفصام الإنسان إلى اثنين: إنسان ينظر إلى إنسان ويدرسه، وإنسان يدرس، ويشرح، إنسان يفعل وإنسان موضوع للفعل، هنا معنى إعلان مفهوم الآخر، الإنسان الآخر الذي هو موضوع للفعل، هو الإنسان الذي يمثل حقل التجارب والاختبار، وهو الإنسان الذي سيوصف بالبدائي، الذي ينبغي الوصاية عليه.

هذا الانفصام بين الإنسان والآخر، سوف يستكمل بانفصام آخر يتمثّل في انفصام مفهومي الوعي واللاوعي، ويرتكز على تمثل الحقيقي وغير الحقيقي، ومن يمثل الحقيقة؟ الحقيقة التي تنتزع من وراء الوعي، هذا الانتزاع يقوم به أناس مختصون أو مخصوصون، علماء يتفضّلون على الآخرين باقترابهم من حقيقة العلم، من الحقيقة التي تكمن في ميدان مغاير أصلاً للميدان الإنساني، ميدان العلوم البحتة.

ما ينبغي الالتفات إليه هنا، أيضاً، أن تأسس العلوم الاجتماعية والإنسانية وانتشارها من الأمم الصناعية، إثر تصدي «الفكر العلمي» «للفكر الديني» فيما عرف بعصر الأنوار، مسؤولان مباشرة عن

انتماء هذا العلم واستعراقه، الذي نكتشفه في العديد من الأبحاث الاجتماعية والأنتروبولوجية؛ فقد كانت النظريات التي وضعها علم الاجتماع والأنتروبولوجيا في المراحل الأولى، وكذلك منظّرو التنمية الذين عملوا مع الوكالات الدولية للتنمية التي أُنشئت بعد الحرب العالمية الثانية، ميالين إلى تفسير المسارات الإنمائية وعمليات التنمية من النمط الغربي، باعتبارها نموذجاً متميزاً، يعتبر منطقه قابلاً لأن يكون شاملاً، ودفعوا أيضاً إلى اعتبار دول العالم الثالث متماثلة، بعمق بعضها مع بعض، وإلى التوجه نحو البحث عن نظرية عامة للتنمية.

ليس ثمّة شك بأنَّ مفاهيم علماء الاجتماع والإنسانيات، تتأثر غالباً بمصالحهم، وبصورة أعم بالالتزامات التي يفرضها عليهم دورهم ووضعيتهم ووظيفتهم، وكذلك أحكامهم المسبقة، أو المفاهيم المسبقة (التي يمكن أن تنجم عن انتمائهم إلى إطار اجتماعي وتاريخي وثقافي خاص)، «في العلوم الاجتماعية كما في العلوم الطبيعية، إن الإيديولوجيات والمعتقدات والانفعالات، هي أجزاء مقومة لا غنى عنها للبحث[١]».

(١) راجع: ر. بودون، وف. بوريكو، المعجم النقدي لعلم الاجتماع. م. س. ص ٥٣٤.

كذلك فإن ليفي ستراوس عالم الأنتربولوجيا اعتبر «أنَّ هذا التواصل الزماني والمكاني بين نصاب الطبيعة ونصاب الثقافة، الذي شدد عليه اسبيناس كل التشديد... هو الذي ترتكز عليه تاريخانية بواس... وإن كان من الواجب عزل الظاهرات الاجتماعية بصورة موقتة عن سائر الظاهرات، ومعالجتها كما لو أنها تنتمي إلى صعيد مخصوص، فإننا نعلم من حيث الواقع، بل من حيث المبدأ، أنَّ بزوغ الثقافة سيظل بالنسبة إلى الإنسان سراً من الأسرار، ما دام هذا الإنسان لم يتوصل، على الصعيد الحياوي، إلى تحديد التحوّلات البنيوية والوظيفية التي طرأت على الدماغ، هذه التحوّلات التي كانت الثقافة نتيجتها الطبيعية»[(١)].

ينزع هذا الفهم إلى ربط المجتمعي بالطبيعي، وبالتالي اعتبار الظواهر الاجتماعية جزءاً من الظواهر الطبيعية، ثم إن الإنسان لا يتميز بوعيه وإنَّ سِرّهُ يكمن في دماغه، كمعطى فيزيولوجي وظيفي، في عملية إقصاء كاملة للعقل. فهل الإنسان هنا يستجيب لخصائص الأشياء وفقاً لبعض الصور أم أنه ذو طبيعة فكرية! لقد أرادوه مستجيباً فقط!!

---

(١) ستراوس، كلود ليفي، من مقالات في الإناسة، ترجمة، د. حسن قبيسي، دار التنوير، بيروت، ص ٧٧، د. ت.

من المفارقات هنا أنَّ هؤلاء العلماء لم يروا في نظرياتهم ومفاهيمهم أنها تتناقض مع الموضوعية والطبيعة الإنسانية.

بعد كلّ هذا الكلام الذي تقدم، هل نستطيع الاستنتاج أنَّ العلوم الإنسانية والاجتماعية، غير قادرة على ادعاء الموضوعية؟ وهي مجرد طامحة إليها، هل بالإمكان التمسك بهذه الريبة؟

لقد أعطي معنى الموضوعية في تلك العلوم بعداً يستند إلى القدرة لدى الجهد التفكيري على إعادة تركيب الوقائع وفق أنظمة عقلانية متماسكة، تبين ترابطها وتوفر القدرة على التحكّم فيها عبر اكتشاف قوانينها. هذه القوانين هي ما يعيد المتغيّر والمختلف من الوقائع إلى الثابت والمعلّل. بهذا، فإن حقيقة الجهد العلمي وأساليب البحث العلمي، والمعرفة العلمية، تصبح أوضح؛ إذ إن مراحل البحث العلمي جعلت محكومة جميعاً بضرورات الموضوعية.

يبدأ البحث من الفرضية وليس من الوقائع المبعثرة. بكلام أدق، يأخذ هذه الوقائع باعتبارها عناصر تنظّم بنظام متكامل (الفرضيات)، وإن كان هذا النظام مؤقتاً ويمكن تعديله لاحقاً، هذا النظام المحتاج إلى تعليل وإثبات أو إبطال (نظرية بوبر)، يظل أفضل من المعطيات المبعثرة التي تقدّم نفسها كأمر بديهي، هنا يكمن معنى الفرضية ووظيفتها، في ما تستدعي التجريبية.

ثمـة إذن كل الدواعـي للريـب فـي العلـوم الإنسـانية والاجتماعيـة التـي اسـتعارت مراحـل البحـث مـن العلـوم الطبيعيـة، واسـتعملتها.

تذهـب العلـوم الطبيعيـة فـي البحـث باتجـاه تركيـب ثنائـي بسـيط، مؤلـف مـن الباحـث والأشـياء أو الموضوعـات، ويصـوغ العلمـاء نظرياتهـم ويتناولـون الواقـع فـي إطـار مقترحـات غيـر مثبتـة تحتـاج إلـى البرهنـة والإثبـات. (الفرضيـات).

أمـا فـي العلـوم الإنسـانية والاجتماعيـة المسـتعيرة لآليـات بحثهـا، فـإن المسـألة تبـدو مختلفـة بشـكل كلـي ونوعـي. فالعلاقـة تبـدو علـى الشـكل التالـي: الباحـث، الموضـوع، الوقائـع، ثلاثيـة الأبعـاد، إلا أنهـا تـدور فـي إطـار واحـد، بمعنـى، أنَّ الباحـث هـو نفسـه الموضـوع، (إذ إن العلـوم الإنسـانية والاجتماعيـة جعلـت الإنسـاني موضوعهـا) فهـو يبحـث فـي نفسـه وفـي أفعالـه، أيـن أصبـح الموضـوع هنـا؟ (هـذه نقطـة فـي خانـة صدقيـة علميـة العلـم فـي العلـوم الإنسـانية والاجتماعيـة).

الموضـوع هنـا ليـس بديهيـاً ولا ناجـزاً، إنمـا هـو إشـكالي. إنَّ الوقائـع التـي ينتجهـا الإنسـان فـي حراكـه هـي إشـكالية بامتيـاز، فـإذاً، مـا هـو دور الفرضيـة هنـا؟ فـي دراسـة الـذات لذاتهـا؟

إن ذلــك يســتدعي بالضــرورة، تأثيــر المعادلــة الاجتماعيــة –

الشخصية والعناصر التفسيرية النظرية. ويزداد الريب في الميل إلى استخدام أساليب للدراسة الاجتماعية تفقد الظاهرة الاجتماعية ما يجعلها إنسانية، أي باعتبارها نتاجاً فاعلاً لديه القدرة على الحضور والتعبير.

ثمة دواعٍ كثيرة للشك في أنَّ كُثراً سيحاولون المحافظة على ضرورة الفرضيات التي يتطلب التحقق منها أو دحضها في إطار الإصرار على التجريب في حقل العلوم الاجتماعية والإنسانية. (سيجري نقاش هذه النقطة لاحقاً).

في المحصلة، ينبغي الالتفات إلى أنَّ المعرفة هي نوع من استيعاب العارف لما يريد أن يعرفه، بمعنى أنَّ العلم استحضار للمعلوم، هذا الأمر يتم في العلوم الطبيعية من خلال نظرية الباحث التي يصوغها، في إطار نماذج مثالية هي نفسها غير ثابتة، أما في العلوم الإنسانية والاجتماعية، فلا يمكن أن يتم إلا بمساهمة الباحث في دفع الموضوع، أو الإنسان الآخر موضوع البحث، أو مساعدته على الحضور، كذلك فإن علماء الاجتماع والإنسانيات، يتطرّقون إلى الواقع الذي يطمحون إلى توضيحه، ليس في حال البراءة وإنما مسلحون بنماذج مثالية يشكلون نظرياتهم ومفاهيمهم انطلاقاً منها. هذه النماذج تشكل طرائق لأولوية الأشكال بالمعنى

الذي استعمله كانت (Kant)، لقد تمّ تبنيها أقله في مرحلة أولى، على أساس فعل إيمان بدلاً من الإثبات، ومن الممكن مثلما يقول فيرابند (Feyerabend) أن يكون الفرق بين العلوم الطبيعية وعلوم الإنسان حول هاتين النقطتين، الإيمان (التسليم) والإثبات[١].

هل يجيز لنا ما تقدّم الادّعاء بأن العلوم الإنسانية والاجتماعية، لا يمكن لها الاستفادة من الأساليب المعرفية ومن الموضوعية في العلوم الطبيعية، بالطبع لا، بل إنّ هذه الاستفادة ينبغي أن تكون مرهونة بالمحافظة على الموضوعية، من خلال إقامة نقد عقلاني للنظريات والطروحات والأفكار والأعمال بلا استثناء.

---

(١) حول هذه المسألة راجع:

Paul Feyerabend. contre la méthode, Éditions du seuil, 1979.

الفصل الثاني

البحث العلمي وأنواعه

أ ـ ما هو البحث العلمي؟ وما معناه؟

لماذا اخترنا أن نصوغ هذا السؤال، قبل أي نقاش؟

أولاً: لأننا هنا لا نسعى إلى النظر في نمط محدّد من الأبحاث العلمية، ونسأل عنه، وإنما نسعى إلى النظر في معنى البحث العلمي، ذلك أنَّ التعرض لهذه النقطة يتيح لنا فهم حقيقته، أو ماهيته، قبل الغوص في أصوله ومنهجياته، وكذلك فإن ما نسعى إليه قد يتيح لنا الحصول على إجابة عن سؤالنا. وقد يساعدنا أكثر على تبيان مدى العلاقة أو الافتراق بين المنهجيات والممارسة في البحث العلمي، لا يقتصر الأمر هنا على استنتاج أنَّ هناك افتراقاً بين منهجيات البحث وممارسته، أو تطابقاً، بل محاولة كي نعي تماماً الأهداف التي على أساسها صيغت طرائق البحث ومنهجياته في العلوم الإنسانية والاجتماعية.

إن ما يضعف البحث العلمي هو عدم تمكّنه من تلبية احتياجات علمه، وهو أنَّ سلطة مناهج العلوم البحتة أبقته تحت تأثيرها حتى الآن.

إنّ الإبداعات العلمية التي تحققت في الأزمنة الغابرة التي سبقت نهضة أوروبا وثورتها، لم تكن بحاجة إلى برمجة، ولم تتشكّل بقوة عقلانية مهيمنة، بل بسلسلة نقلات حرة[1] للعقل في حقول المعرفة؛ إننا ونحن ندعي هذا الكلام، حريصون على عدم التسرّع في نقض البحث العلمي المعاصر، ونطرح من موقع دلالي إمكانية توافر نظام معرفي لغوي يتيح للبحث العلمي في العلوم الإنسانية والاجتماعية تخطّي عقدة النقص حيال العلوم الطبيعية.

ثانياً: إن الحاجة التي يرزح تحت وطأتها العلم، تمثّل الأساس في ممارسة البحث وانطلاقته بغية إشباعها.

لقد سعى الإنسان، إلى فهم العالم ومعرفة ما حوله، وبناء تصوره، وإن وضعيته وهمه في الحصول على المعرفة، ألزمته بالبحث، وبالفعل، يظهر أنَّ المعيار الأساس والأول للبحث هو المعرفة، هكذا شكلت المعرفة حاجة ملحّة بل أكثر إلحاحاً لدى الإنسان، فكانت حاجة يرزح تحت وطأتها العلم.

إنّ أطروحة كهذه تطمح إلى إعطاء البعد الحقيقي للبحث العلمي. إنّها تؤدّي في الواقع إلى سحب صفة الموجب وإضفاء صفة ملبّي الحاجة للمعرفة.

---

(١) حول هذه النقطة راجع: Jean- Francois Lyotard: L'Enthosiasme, Editions. Galilee.

إذا قبلنـا هـذا الـكلام، فـإن معيـار النزاهـة، يصبـح هـو المعيـار الثانـي للبحـث العلمـي، كذلـك المسـؤولية، هـي المعيـار الثالـث.

إن المعاييـر التـي نوردهـا هنـا لا تتميـز بقدرتهـا علـى التحكّـم فـي غايـات الباحثيـن وأهدافهـم، وإلزامهـم بمـا تمثلـه، ولا بالقـدرة علـى إضفـاء صفـة القداسـة والطوباويـة علـى أي بحـث علمـي، وإنمـا هـي معاييـر مقترحـة بالإجمـال للبحـث العلمـي فـي العلـوم الإنسـانية والاجتماعيـة.

ثالثـاً: لأنَّ صناعـة المعرفـة والحصـول عليهـا مهمـان إلّا أنّ الأهـم هـو كيفيـة الحصـول والصناعـة. يـدرك الكثيـرون الصفـة الاصطناعيـة للمعرفـة، بمعنـى أنَّ المعرفـة تصنـع بوسـاطة مناهـج وأعمـال إنّهـا المعرفـة المُنْتجـة، هـذه المعرفـة نحـن الذيـن نصنعهـا وننتجهـا، ويمكننـا أن نطوّرهـا ونعـدّل بهـا ونغيرهـا ونزيـد عليهـا.

ثمـة معرفـة أخـرى، هـي المعرفـة القبليـة، كيـف نحصـل عليهـا؟ لقـد تميـز الإنسـان مـن غيـره، مـن الموجـودات بقدرتـه علـى الفهـم والتحليـل والتركيـب، هـذا نتـاج امتلاكـه للعقـل، الـذي يختـزن قبليـات معرفيـة، تتظهـر خـلال مراحـل الحيـاة التـي تنطلـق منـذ الـولادة حتـى الممـات، علـى مسـتوى الفـرد ومسـتوى الجماعـة.

ثمـة تواصـل بيـن المعرفتيـن، إذا كان الإنسـان ينتـج معرفـة فإنـه

يستخدم عقله لإنتاجها إلى جانب حواسه، وإنّ عقله الذي يمكّنه من إنتاج المعرفة يقدم له الأوليات المعرفية للإنتاج.

بعد إيراد هذا التمييز والعلاقة باختصار، يمكن إعادة المسألة الرئيسية المطروحة، كيفية صناعة المعرفة وحصولها؟ هناك اختلاف بين إنتاج المعرفة والمعرفة المنتجة، وهذه نقطة جوهرية.

فللمعرفة حقائق، والحقائق نفسها متغيّرة، والإنسان يمتلك أكثر من طريقة للوصول إليها وممارستها. هناك طريقتان متفق عليهما:

الأولى: الوصول إلى المعرفة وممارستها عن طريق الحواس، وتسمّى بالمنهج الاستقرائي، يعني ذلك، من خلال المشاهدة والمعاينة والملاحظة للوقائع والأحداث والظواهر واستقرائها عمليّاً وتجريبياً، كذلك فحص الدراسات السابقة.

الثانية: الوصول إلى المعرفة وممارستها عن طريق العقل، بالاستدلال، وهذا يعني أن ينطلق الباحث من فكرة أو رؤية أو افتراض، ويضع احتمالات، ويذهب باتجاه برهنة صحتها أو عدم صحتها، وهذا ما يسمى استنباطاً أو استدلالاً.

استخدام كلّ من المنهج الاستقرائي أو الاستنباطي سيواجه عمليات النقد، فعندما يقول باحث إنه استخدم الاستقراء في بحثه وتوصل إلى النتائج التالية، سيقال له إنَّ ما توصل إليه من نتائج، هو

في الأساس خاضع للتوجيه، بمعنى أنه عندما انطلق من فكرة أو نظرية، أو افتراض في بحثه، قد حدد مسبقاً وجهة البحث، وبالتالي أصبحت النتائج أقرب إلى أن تكون معلومة مسبقاً، فهي تمثل إما توافقاً مع الفكرة، وإما تعارضاً معها. معنى ذلك أنه قام مسبقاً بتوجيه البحث؛ وهو عندما كان يلاحظ أو يقرأ ويعاين الأحداث والظواهر، تشكلت لديه فكرة البحث، وانطلق منها إلى أنّ وصل إلى ما وصل إليه.

وعندما يعلن باحث آخر موقفاً مختلفاً، وأنّه استخدم المنهج الاستنباطي، للوصول إلى النتائج التي توصّل إليها، سيواجه بموقف نقدي أيضاً؛ هو أنّ ما قام به إنّما هو عمل حدسي يستند إلى الحدس وإلى الحواس، هو عمل عقلي بامتياز، وبالتالي فإن الباحث قد حصل على نتائج عمله من خلال تشغيل الحدس أكثر من العمليات الإجرائية البحثية. في المحصلة يقع الاثنان في دائرة توجيه العقل لأعمالهم وتدخّله فيها مباشرة وغير مباشرة.

إنّ كلاً من الباحثين الاثنين أمام مواقف نقدية، وهما يحتاجان إلى تبرير ما قاما به وتوضيحه.

يرتكز هذا التوضيح على وعي التمييز بين «الاستقرائي» و«الاستنباطي»، أي بين «الإجرائي» و«النظري».

يُنتج الإنسان معرفته بالعالم المجتمعي بوساطة أدوات

وتقنيات يستخدمها في حقل التجريب والاختبار (الإجرائي)، وينتجها في الوقت عينه في إطار العمل التفكُّري والتأمُّلي، الذي تراكم عبر التاريخ (النظري).

ما الذي يمكن أن ينتج من عدم وعي التمييز بين «الإجرائي» و«النظري»، ينعكس عدم التمييز بين الاثنين، خلال الأعمال البحثية، أو نقاش القضايا المعرفية والمفاهيمية.

أمام هاتين المسألتين، وعي التمييز وعدم وعيه، ما الذي ينبغي فعله ؟

هذه نقطة تحتاج إلى فهم نقاط الالتقاء ونقاط الافتراق بين المنهجين:

١ ـ يلتقي كل من الاستقراء والاستنباط من حيث المنطلقات الأساسية، إذ إنهما ينطلقان من رؤية، صاغها الفكر في كيفية الحصول على المعرفة، أو أنّ كلّاً منها انطلق من رؤية صاغها الفكر، وهذا يعني أنّ المنهجين كليهما هما نتاج عمل تفكري، عقلي، وإدراكي، يلعب العقل فيه دوراً أساسياً، وفي تحديد وتوضيح وتفسير كلّ منهما.

يفترق المنهجان إجرائياً، إذ إنّ لكلّ منهما إجراءاته وطريقته في الاشتغال.

لقد مارس المنهج العلمي المعاصر، الخداع منذ فرنسيس

بيكــون، إلــى جــون ســتيوارت ميــل وبرنــار رواد الاتجــاه الاســتقرائي (التجريبــي) إلــى ديــكارت وحركــة أكســيوماتيك[1][2] الحديــث وصــولًا إلــى برترانــد راســل، والاتجــاه الرياضــي (الاســتدلالي) كيــف؟

أ ـ المنهــج العلمــي التجريبــي: هــو منهــج العلــوم الطبيعيــة، أولاً، ومنهــج العلــوم الإنســانية ثانيــاً، ويعتمــد الاســتقراء، كان فرنســيس بيكــون قــد وضــع أساســه العلمــي الحديــث فــي فكــر النهضــة فــي كتابــه الشــهير (الأورجانــون الجديــد) الــذي حــل محــل أورجانــون أرســطو، وفيــه يــرى للملاحظــة أو المشــاهدة والتجربــة أو الاختبــار الأهميــة الأولــى.

المنهــج الرياضــي: تطــور مــع ديــكارت الذي وضــع الهندســة التحليلية، معتبــراً العلــم الرياضــي، العلــم الرابــط بيــن جميــع العلــوم، وفيــه تتمثــل الطريقــة الصحيحــة لقيــادة العقــل، مميّــزاً بيــن الحــدث والاســتدلال، بطريقــة منهجيــة، تعتبــر أســاس تطــوُّر العلــم الرياضــي المعاصــر.

---

(١) حركة الأكسيوماتيك الحديث، هي حركة النقد الداخلي في الهندسة، ابتدأت مع محاولة الأب ساكيري الرياضي الإيطالي «برهان التخلّف على المُسلَّمة الاقليدية الخامسة (المتوازيان) في القرن الثاني عشر الميلادي».

(٢) الأكسيومية وتعني منظومة الأوليات.

للمنهج العلمي المعاصر بشقّيه التجريبي والرياضي، أسس معرفية، محددة، تبدأ من كون إدراك الظواهر الطبيعية والإنسانية والحقائق الرياضية وبراهينها، أمراً ممكناً على الدوام، وهذا الإدراك هو نسبي باختلاف مناهج البحث، واتجاهات الباحث، وزوايا بحثه[1].

بالنظر إلى المعايير الأساسية والمنطلقات التي ينطلق منها كل من المنهجين، نجد أنها تبدأ من المعرفة، من اشتغال العقل، من إطلاق فكره، إنها بالأصل مسألة عقلية تفكرية.

إذا قبلنا هذا الكلام، يكون الكلام عن التمايز الذي يقدمه المنهج العلمي المعاصر، في التفريق بين منهجين اثنين، والتصور للفصل بينهما نظرياً غير متوافق مع الأصول، وبالتالي فإن التمايز يقع في الممارسة المنهجية لكلّ منهما وطرائق الاشتغال.

إن ما يضعف التصوّر هنا، هو أنّ سلطة الأصل تبقى ضاغطة في تحديد المعايير، وهكذا، هل ثمّة ما يغوينا في تقسيم المنهجين وفصلهما، بوساطة التعميم التعسفي، بأنّ التجريبي شيء والرياضي شيء آخر؟ إنه خداع منهجي، جرت ممارسته في حقل العلوم الإنسانية والاجتماعية، اعتماداً على فكرة القطع المنهجي.

---

(١) د. منيمنة، جميل، المنهج العلمي المعاصر، من وجهة إبستيمولوجية، مجلة الفكر العربي، العدد ٥٥، السنة العاشرة، كانون الثاني، شباط ١٩٨٩ - ص ٩٣. م. س.

إنَّ الفاصل بين التجريبي والرياضي، يقع في حقل الممارسة العملية، وليس في أساس الاشتغال العقلي.

لنأت الآن إلى سؤال ثانٍ، متعلّق بالنشاط المعرفي، وبرنامج علم اجتماع المعرفة وغرضه. لقد أراد علم اجتماع المعرفة مع لاكاتوس (Lakatos)، ومنهايم (Menheim) ودوركهايم، أن يضع تحت ولايته «محدّدات» المعتقدات والإيديولوجيات وكذلك المعرفة، وقد اعتبر دوركهايم أنّ هذه المعرفة تُشتقّ مباشرة من التجربة الاجتماعية.

إنَّ التجربة الاجتماعية، التي اشتملت على ما هو مقدس وما هو محظور خُلُقي وغير ذلك، أعطت الإنسان أفكاراً مختلفة ومتنوعة وأنتجت معارف. إلا أنها ليست سابقة للأحاسيس والأفكار التي يمتلكها الإنسان، الفرد والجماعة، والتي بدونها لا يمكن الحصول على المعرفة، باعتبار أنَّ الإنسان الفاقد لمقدّساته العقلية ليس بمقدوره إنتاج المعرفة، وإن مارس التجريب في أي من حقول الحياة.

إن ما اقترحه دوركهايم هو في الأساس عملية إقصاء للدين وإبعاد للفكر الكنسي، وإضفاء صبغة علم الاجتماع على الأشكال الشهيرة السابقة للتجربة.

علينا أن نلتفت هنا إلى نقطة مهمّة، أرادت أن ترسخها رؤية دوركهايم وهي تتعلق بالوعي الإنساني، بمعنى أنها أرادت العبور من خصوصية الإنساني ووعيه، وانفصال الديني، عن قوانين الموجودات وحركيتها، إلى مبدأ السببية المعممة، أي إلى الموضوعية والموضوع.

هذه هي المسألة التي قام عليها الفكر العلمي المعاصر، أو هذه النقطة الأساس التي كان عليه تحقيقها من أجل أن يحقق أهدافه. إن التصدّي الذي بدأه الفكر الموضوعي للفكر الكنسي كان له خصوصيات، أهمها انطلاقته التي كانت من الضرورة، فهو لم يأتِ نتيجة لجهد إبداعي، بل لأنَّ الاضطرار حتم ذلك. هذه نقطة أساسية.

إنّ انطلاق هذا الفكر من مبدأ الضرورة (أشرنا إلى هذا الأمر سابقاً)، استدعى الحساب الكمي، لكنه لاحقاً سيتجه إلى الحساب الاحتمالي خصوصاً في العلوم الإنسانية، التي ستبقى منجذبة إلى العلوم الدقيقة. إنّ التصدّي الذي كان ضرورياً واضطرارياً، استدعى محاولة مستميتة لتعميم السببية العلمية استكمالاً لذلك، يستدعي الأمر معركة أخرى ضد الوعي الإنساني، فأصبحنا أمام معادلة، العلم الإنساني ضد الوعي الإنساني. لقد اعتبر الوعي

الإنساني أو مفهوم الوعي بمثابة عنصر مترسّب أو من بقايا الفكر الديني الموروث.

لقد أغفل هذا الفكر أنَّ الوعي يؤسس للمعرفة ويطلقها، وبالتالي فإن ما مارسه هذا الفكر هو أيضاً خداع علمي ومنهجي، تمثل في إقصاء الوعي وتعميم التجربة.

لقد كان على هذا الفكر أن يلتفت إلى العلاقة القوية بين الوعي والمعرفة وإنتاجها، بعيداً من اعتباراته الثأرية ضد الدين، وموقفه من الفكر الكنسي، وأغفل أنّ الإنسان لديه معرفة تؤمّن له الانطلاق في إنتاج معارفه الأخرى، إنّها المعرفة القبلية.

حاول بول لازار سفيلد، عالم الاجتماع الأميركي، أن يعطي تفسيراً لولادة الفكر العلمي المعاصر، من خلال إشارته إلى التحوّلات الجذرية التي عرفتها أوروبا في القرن التاسع عشر، بعد الثورة الصناعية التي أتت على النظام القديم، إذ إن «الأفكار العقلانية والمبادئ التي ظهرت في عصر الأنوار وروّجتها الثورة الفرنسية، لم تستطع المساهمة في إحلال نظام مجتمعي جديد، فكان لا بدّ من إيجاد طريقة لإحياء الحس الجماعي من خلال دراسة لأشكال الاغتراب والعلاقات الطبقية الجديدة التي كانت تعانيها الجماهير العمالية، لذلك وضع رواد علم الاجتماع ومؤسسوه في القرن التاسع عشر، نصب أعينهم مهمة إيجاد الحلول والعلاج

للتفسخات التي أصابت البنية المجتمعية القديمة التي كانت سائدة قبل انتشار النظام الرأسمالي»[1].

هنا يشير لازار سفيلد إلى مأزق المجتمع الأوروبي بعد الثورة، ويرجح أن تكون الأزمات المجتمعية الأوروبية هي التي ساهمت في نشأة علم الاجتماع، والفكر الموضوعي.

إن هذا النقاش يرتكز على مسألة الأزمات، وليس على المنطلقات الأساسية للفكر الموضوعي وأسبابه.

وهو يذهب إلى جعل تلك الأزمات سبباً لنشوء العلم، دون أن يلحظ دور هذا الفكر في تبدّل البنى الاجتماعية في أوروبا، من خلال الأفكار والمبادئ التي أطلقها، والتبدلات التي أنتجتها الثورة، مركّزاً على الأزمات باعتبارها هي التي أمّنت الشروط الواقعية لوعي البنية الاجتماعية، واستقلالها، وانفصالها عن الفرد والأفراد، وأنّ الأفراد لا يصنعون الأزمات، بل يتلقون مفاعيلها السلبية، ويعيشون تحت وطأتها.

ممَّ يتألف إذن المجتمع الإنساني؟ أو ممَّ تتكون البنى التحتية؟

---

(١) Lazarsfeld, Paul, qu'est-ce que La Sociologie, Gallimard, Paris, 1970, p1.

إذا كان الواقـع المجتمعــي الجديـد يتطلــب الدراســة، فـإن ذلـك لا يعنــي أنَّ الفكـر الموضوعـي والعلمـي، جـاء لهـذا السـبب. إن الاقتصـار علـى هـذا الـرأي فـي محاولـة فهـم نشـوء الفكـر الموضوعـي والعلـوم الإنسـانية والاجتماعيـة، يشـير إلـى عجـز فـي فهـم هـذه المسـألة.

ب- الإجابات حول البحث العلمي وتعدد أنواعه

أولاً: باسم البحث العلمي، نجد في كثير من الكتب التي تتحدّث عن البحث العلمي والمناهج، في العلوم الإنسانية والاجتماعية، مجموعة من الإجابات حول ماهية البحث العلمي ومعناه ومفهومه:

١- البحث العلمي هو أسلوب منظم في جمع المعلومات الموثوق بها وتدوين الملاحظات والتحليل الموضوعي لتلك المعلومات، باتباع أساليب ومناهج علمية محددة بغية التحقق من صحتها أو تعديلها أو إضافة الجديد إليها، ومن ثم التوصل إلى بعض القوانين والنظريات والتنبؤ بحدوث مثل هذه الظواهر والتحكم في أسبابها، كما هو الوسيلة التي يمكن بوساطتها الوصول إلى حلّ مشكلة محدّدة. يعتمد البحث العلمي على الطريقة العلمية، وهي تعتمد على الأساليب المنظمة والموضوعية في الملاحظة، وتسجيل المعلومات، ووصف الأحداث وتكوين الفرضيات.

٢ـ يُعرَّف مفهوم البحث العلمي بأنه المحاولة الناقدة التي تحاول الوصول إلى حلّ مشكلة إنسانية معينة تؤرق الإنسان وتحيره.

٣ـ البحث العلمي هو تفسير لحقيقة ما باستخدام عبارات واقعية تطبّق بقوانين عامة توجد في المجتمع.

٤ـ البحث العلمي، مجموعة من الخطوات المنتظمة والمدروسة، تُبنى على معلومات تجمع حول مشكلة معينة، وتخضع للفحص والتدقيق، وذلك لحل المشكلة.

٥ـ البحث العلمي فكر منظم يقوم به شخص يدعى (الباحث)؛ للوصول إلى الحقائق لحل قضية تُسمّى (موضوع البحث)، إذ يتبع طريقة علمية تسمى (منهج البحث)؛ ليصل إلى حلول تُسمّى (نتائج البحث).

٦ـ يُعرَّف بأنه طريقة في التفكير، وأسلوب في النظر إلى الوقائع، يصبح معها معنى المعطيات التي يتم جمعها واضحاً في الذهن.

٧ـ هو تقصٍّ أو فحص دقيق لاكتشاف معلومات أو علاقات جديدة ونمو للمعرفة الحالية والتحقق منها.

٨ـ ينزل الباحث إلى أرض الواقع المجتمعي فيدرسه، وهذا هو البحث العلمي.

٩- ينزل الباحث إلى أرض الواقع المجتمعي ويمارس تقنيات الاستمارة أو المقابلة أو العينة أو غيرها، وهذا هو البحث العلمي.

١٠- ينزل الباحث إلى أرض الواقع المجتمعي، ويمارس التحقيق الاجتماعي بالعينة، مع كلّ المراحل والمحطات والتقنيات التي يتضمّنها، ومع التركيب والإدماج الخاص بينها، من التوثيق إلى تحديد الموضوع والإشكالية والفرضية والاستمارة والمقابلة، وجداول استخلاص النتائج وتحليل النتائج وكتابة التقرير النهائي وهذا هو البحث العلمي.

بغض النظر عن كيفية استعمال كلمة أو مفهوم بحث فإنها جوهرياً تعني الشيء نفسه: محاولة لاكتشاف شيء[1]، أو معرفة ما، وهذا الأمر نقوم به كل يوم كأناس عاديين، الأمر المهم هنا هو كيف نبحث وما هي طرائق بحثنا؟

يمكن أن يكون البحث عادياً أو عملياً، البحث العلمي يمكن أن يكون مؤسسياً فيتبع الباحث إجراءات معرّفة جداً وصارمة،

(١) ويمر روجر، دومينيك جوزيف، مدخل إلى مناهج البحث الإعلامي، ترجمة صالح أبو إصبع وفاروق منصور، المنظمة العربية للترجمة، البصرة وبيروت، حزيران ٢٠١٣، ص ٢٣.

وعدم وجود إجراءات صارمة، دقيقة في البحث غير المؤسسي لا يعني أنَّ هذا الأسلوب غير صحيح، كما أنَّ استخدام الإجراءات الدقيقة الصارمة لا يجعل البحث المؤسسي حتماً صحيحاً. كلا الإجراءين قد يكون جيداً وقد يكون سيئاً، الأمر يعتمد على كيفية إجراء البحث[1].

إن اتباع مناهج البحث بشكل أفضل يعتبر الطريقة الفضلى للحصول على بحث علمي صحيح نسبياً، بدرجة عالية.

بالعودة إلى منطلق الكلام، نحن كأناس عاديين، كلّ يوم نقوم بعدد من الأبحاث، ضمن ظروف الحياة اليومية التي نعيش. هذه الأبحاث قد تبدو لنا جميعاً أنها تلقائية وبديهية لأننا في كلّ أحوالنا نحتاج إلى استخدام تقنيات البحث لنحصل على ما نريد في دورة حياة تطول فيها القائمة. إلّا أنّ المسألة أبعد من ذلك، إنّنا عندما نقرر البحث عن شيء ما مثل أي من الملابس نريد أن نرتدي؟ أو للقيام بعمل ما أو زيارة ما ينبغي أن نحدد الملابس المناسبة، فماذا نفعل؟

إننا نضع تصميماً لما نريد أن نقوم به، يحدد لنا كيف نعين الملابس ونختارها وما هي المعايير وكيف نهيئها الخ... ربما

(١) م. ن ص ٢٤.

تطلب منا الأمر القيام بعدد من الإجراءات، للوصول إلى النتيجة المتوخاة، في الجوهر نصبح جميعاً باحثين بالفعل.

بساطة هذا الكلام تطرح علينا السؤال التالي إذا كنا بهذه الحال جميعاً باحثين، لماذا إذاً البحث العلمي أو هل كان بالإمكان التوصل إلى ما توصلنا إليه بدون بحث علمي؟

الإجابة المرتجاة، هي أنَّ البحث العلمي حاجة ملحة من أجل تنظيم عمليات التطور وتسريعها وتوفيرها، وهو مختلف عن البحث العادي، إنه عمل متخصص، علة وجوده الحاجة إلى المعرفة الدقيقة والمنظمة. ولمجرد أن تكون الحاجة إلى المعرفة الدقيقة والمنظمة موجودة فإن البحث العلمي لا بدّ منه، وإن سؤال لماذا! وكيف؟ واقع لا محال.

منذ أن ظهرت الحاجة إلى المعرفة الدقيقة والمنظمة، واعتمد التراكم لإشباع الحاجة وتفعيل نتائجها في البناء الحضاري الإنساني، وضعت معادلة الزمان والمكان، متى وأين؟ نبحث، بوصفهما الإحداثيتين اللتين تنتظم بهما كل الحوادث والموجودات. قبل الاستمرار في الحديث ينبغي أن نلتفت إلى أنَّ الزمان والمكان سابقان لوجود الإنسان وفعله وبالتالي، فإنه كان من المستحيل تجاهلهما في العمليات البحثية العلمية، مثلما لا يمكن تجاهلهما ولم يحدث قط في العمليات البحثية العادية. إنّ الموضوعية تقتضي أن ننظر إلى الموضوع في زمانه ومكانه،

وسائر معطياته، وليس نظرة إطلاقية، وهذه مسألة حيوية في البحث العلمي.

ولعل هذه النقطة تعتبر أساساً أولياً لوجود البحث العلمي، إذ بدون الالتفات إلى أهمية الزمان والمكان، لا يمكن الالتفات إلى مواضيع البحث، فلا يوجد موضوع خارج هاتين الإحداثيتين فبهما تحدث الأمور، وهما تكادان تكونان مندمجتين في كل الموضوعات، أو بالأحرى هما متّحدتان بكلّ الموضوعات.

هذه المسألة الحتمية الأولى التي ينبغي أن نأخذ بها في البحث العلمي في العلوم الإنسانية، فيما سائر الأشياء هي نسبية ومتغيرة، وخاضعة للتبدل والتغير بفعل سيرورة الزمن، الذي يواصل تعاقبه بلا توقف.

ثانياً: أنواع البحث العلمي

I- في العلوم الطبيعية التطبيقية

تتعدّد التقسيمات التي على أساسها يمكن التمييز بين أنواع البحث العلمي، ومن هذه التقسيمات ما يلي:

١ـ تقسيم البحوث منهجياً حسب الهدف منها:

أ- بحوث نظرية (pure research): وهي البحوث التي تهدف إلى الوصول إلى النظريات والحقائق والقوانين العلمية، التي تساهم

في نمو المعرفة العلمية، وتحقيق فهم أشمل وأوضح وأعمق لها بصرف النظر عن الاهتمام بالتطبيقات العلمية لهذه المعرفة.

ب- بحوث تطبيقية (Applied research): ويكون الغرض منها الأساسي والمباشر، تطبيق المعرفة العلمية المتوافرة، أو التوصل إلى معرفة لها قيمتها وفائدتها العلمية، في حل بعض المشكلات الآنية الملحة. هذا النوع من البحوث، تكمن قيمته في قدرته على حلّ المشكلات الميدانية وتطوير أساليب العمل وإنتاجيته في المجالات التطبيقية، كالصحة والزراعة والصناعة...الخ.

٢- تقسيم البحوث وفقاً لاستخدامها أو حسب الأسلوب:

أ- بحوث وصفية (Descriptive research): وتهدف إلى وصف ظواهر أو أحداث معينة، وجمع الحقائق والمعلومات عنها، ووصف الظروف الخاصة بها، وتقرير حالتها، كما هي في الواقع، كأن يبحث العلماء في الأعاصير والظواهر الكونية وغيرها. في كثير من الحالات لا تقف هذه البحوث عند حدّ الوصف أو التشخيص الوصفي، وإنما تهتم أيضاً، بتقرير ما ينبغي أن تكون عليه الظواهر أو الأحداث التي يتناولها البحث، وذلك في ضوء قيم أو معايير معينة، واقتراح الخطوات أو الأساليب الواجب إتباعها.

ب- بحوث تاريخية (Historical research): لهذه البحوث

أيضاً طبيعة وصفية، إذ إنها تصف الأحداث وتسجل الوقائع التي جرت في ما مضى من الزمن، إلّا أنَّ ما يميزها من البحوث الوصفية، عدم توقفها عند مجرد الوصف والتأريخ لمعرفة الماضي وحسب، بل ما تتضمنه من تحليل وتفسير للماضي من أجل اكتشاف تعميمات تساعد على فهم الحاضر، والتنبؤ بالمستقبل.

يركز البحث التاريخي على التغيّر والتطوّر في الأفكار والاتجاهات والممارسات في حركة الطبيعة ومكوناتها، كما في ممارسات الأفراد والجماعات.

ج- بحوث تجريبية (Experimental research): تجري هذه البحوث في الميدان أو في المختبرات، وعملياً في المجال الذي تحكمه الظواهر المحسوسة، مثل الكيمياء والفلك وغيرهما، وهي تعتمد المنهج التجريبي الذي يعتمد على الملاحظة الحسية وعلى العمل والتجربة والمختبر، وعلى فرض الفروض والتحقق من صحتها أو عدم صحتها، إلّا أنَّ ذلك لا يعني أن يقتصر العمل هنا على المنهج التجريبي، إذ إن هذه العلوم تعتمد أيضاً على المنهج الاستنباطي أو المنهج العقلي الاستنباطي الرياضي.

٣- تقسيم آخر يميل إليه العديد من العلماء:

أ- البحث العلمي الكامل (Complete research): وهو النوع من الأبحاث التي ترمي إلى حل المشاكل والمواضيع حلاً

علمياً شاملاً يحيط بكل الجوانب والحيثيات المرتبطة بالمشكلة موضوع البحث.

ب- البحث العلمي غير الكامل (Incomplete research): وهو عبارة عن مقالات علمية، الغرض منها إيصال معلومات سريعة إلى القارئ حول موضوع محدد.

ج- البحث التنقيبي الاستكشافي (Dscovery research): يهتم هذا النوع من البحوث بالكشف عن الحقائق بواسطة إجراءات معينة واختبارات علمية تقنية، والباحث هنا غير مطالب بالوصول إلى نتائج يمكن تعميمها، وإنما هو مطالب بالتأكيد على صحتها ودقتها.

د- البحث الاستطلاعي (Exploratory research): تعمل هذه البحوث على مشكلة بحث غير محددة المعالم، وهي تمثل اللبنة الأولى للدراسات الميدانية. يكمن التركيز الأساسي لمثل هذه الدراسات على اكتشاف الأفكار والآراء المتباينة، وتساعد على فهم المشكلة المدروسة في البحث، وهي تعتمد أساساً على قياس الرأي العام.

هـ- البحث التفسيري النقدي (Criticle research): وهو عملياً بحث مكمّل للبحث الاكتشافي، فهو يهتم بالوصول إلى نتيجة معينة عن طريق استعمال المنطق والأفكار، فهو يهتم بتحليل المعلومات، وكيفية معالجة المشكلة.

٤- تقسيم آخر ينظر إليه:

أ- البحوث الحتمية (Inevitable research): وهي بحوث في الفيزياء والرياضيات وعلم الأحياء، وغيرها، وتعمل على تحقيق تقدم تكنولوجي ومنافع اقتصادية.

ب- البحوث التطبيقية (Applied research): وهي تخدم خطط التنمية الاقتصادية، وتقوم بتطوير أساليب العمل والإنتاجية.

ج- البحوث والتطوير (Researchand Developement): وتهدف إلى نقل التكنولوجيا المعاصرة وتطويعها وتطويرها.

في المحصلة، أجمع علماء الطبيعة بداية على تدرج خطوات البحث العلمي: ملاحظة، تعميم استقرائي؛ فكرة، تحقق من الفكرة، برهان أو دحض، معرفة علمية. واعتبرت «النظرية العلمية مجرد تعميمات استقرائية، خصوصاً أنَّ هذا الاعتبار ملائم تماماً للفيزياء الكلاسيكية، وهي تتعامل مع عالَمٍ فيزيائي كل شيء فيه قابل للملاحظة الحسية، فما أيسر أن نلاحظ ثم نعمم. لذا ساد في المرحلة الأولى من فلسفة العلم هذا الاتجاه التبريري اللاتاريخي، والمفرط في الارتكاز على الاستقرار بصورته التقليدية التي تصر على البدء بالملاحظة. وحين أتى العام ١٨٥٠م. كان هذا الاتجاه

مصوغاً جيداً بفضل جون ستيوارت مل وكتابه «نسق المنطق»، وسار خلف مل جمع غفير من فلاسفة العلم»[١].

في مرحلة لاحقة مع كلود برنارد انفرط هذا الإجماع، بعد أن «ميز كلود برنارد تمييزاً قاطعاً بين الملاحظة والتجربة، إن الملاحظة أمبريقية، وهي تمهيدية بسيطة، أما التجربة فهي موجهة في إطار محدد ومسلحة بالأجهزة المعملية الدقيقة،... إذاً الفرق الكبير بين الملاحظة الأمبريقية والتجربة يعود إلى الفكرة... يشدد برنارد على أهمية الفكرة، والفكرة يراها أسبق من التجريب...»[٢].

مع انفراط إجماع العلماء، تحوّلت العلاقة بين الفكرة والملاحظة إلى إشكالية رئيسة. في القرن العشرين تحوّلت نظرية البدء بالفكرة إلى بديهية من بديهيات العلم، والمنهج التجريبي في القرن العشرين هو المنهج الذي يبدأ بالفكرة.

«صيغت نظرية المنهج التجريبي البادئ بالفكرة فيما يعرف بالمنهج الفرضي الاستنباطي (Hypotheticap deatuctive)،

---

(١) الخولي، د. يمنى طريف، فلسفة العلم في القرن العشرين – الأصول، الحصاد، الآفاق المستقبلية، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، الطبعة الأولى، كانون الثاني ٢٠٠٠ – ضمن سلسلة «عالم المعرفة» العدد رقم ٢٦٤ – ص ١٣٧.

(٢) م.ن.، ص ١٥٠.

ويبدأ بفرض صوري عام لا يشتقّ من الخبرة، ولا يخضع هو نفسه للتحقيق التجريبي المباشر، فيلجأ الباحث إلى الاستنباط كي يستنبط منطقياً ورياضياً النتائج الجزئية التي تلزم عنه، وهنا يأتي دور التجريب ودور الملاحظة...»[1].

في النصف الثاني من القرن العشرين، انطلقت ثورة الفيزياء الكبرى، ونظرية النسبية، وثورة الرياضيات الحديثة، والثورة الرقمية، وانتقلت العلوم الطبيعية إلى مرحلة جديدة في العلاقة بين الفكرة والملاحظة، فتبددت الأوهام في ضوء ثورة النسبية، وثورة الفيزياء «وأصبح العلم الاختباري التجريبي يتعامل مع كيانات غير قابلة للملاحظة أصلاً، فلا يمكن رصد الجسيمات الذرية، يمكن فقط رصد آثارها على الأجهزة المعملية، ما يعني أنَّ التجريب يشترط قبلاً فكرة نصمم التجربة والآثار المتوقعة على أساسها، وإلا سيدخل العالِم إلى معمله ولا يجد شيئاً يفعله»[2].

II- في العلوم الإنسانية والاجتماعية

منذ انطلاق العلوم الإنسانية والاجتماعية في القرن التاسع عشر، جُعل الإنسان موضوعاً للعلم والمعرفة، وساد الأمل والحلم

---

(١) م.ن.، ص ١٦٥.

(٢) م.ن.، ص ١٧٢.

الأسطوري، بتحرر الإنسان من استلاباته، وخواطره «ومن كل المحددات التي لم يكن متحكماً فيها، ويستطيع بفضل هذه المعرفة التي اكتسبها عن نفسه أن يصبح من جديد، أو يصبح لأول مرة، سيد نفسه ومالكها، وبعبارة أخرى، لقد جُعل الإنسان موضوعاً للمعرفة كي يصير بإمكانه أن يصبح ذاتاً فاعلة لحريته نفسها ولوجوده نفسه»[١].

ما الذي حدث؟ منذ القرن التاسع عشر إلى اليوم، لم يُعثر على هذا الإنسان، أو هذه الطبيعة الإنسانية، المتحرّرة من كلّ الخواطر والأوهام والمحددات المعلوم منها وغير المعلوم، وكشفت الدراسات التحليلية التي أجريت في مجالات متعدّدة، منها ما أُجري حول ظواهر الجنون مثلاً، أنّ اللاوعي لدى الإنسان يسير بمقتضى أواليات، بمعنى أنَّ هناك أوّاليات تؤثر في الإنسان وفي تفكيره وسلوكه، وهذا ما سميناه سابقاً (وعي قبلي). هذه الحال ليس لها علاقة البتة بما كان الناس يتوقعونه، من الوصول إلى إنسان منعتق من القبليات أو الأواليات كافة، الوصول إلى ماهية إنسانية بحتة، «قد تكون الرغبة في فصل الإنساني عن «الإلهي وتحديد موقع الإنسان في الوجود، وراء محاولات الانتقال من الإلهيات

(١) La quizaine litteraire, n. 5, mai 1966.

إلـى الإنسـانيات، ومواجهـة الفكـر الدينـي» «بالفكـر العلمـي» أو مـن علـم آلهـة (theologie) إلـى علـم النـاس (anthropologie)[1]، تلـك الرغبـة فـي الانتقـال أو الضـرورة فـي الانتقـال (وهـي حدثـت فـي مرحلـة تولـه الإنسـان بالغيبيـات، واشـتهائه الماديـات فـي آن) سـاهمت فـي الدفـع باتجـاه تعـدد البحـوث فـي العلـوم الإنسـانية والاجتماعيـة وتوسـع مجالاتهـا ونظرياتهـا ومناهجهـا، واختـلاف طرائـق وتقنيـات وأدوات جمـع المعلومـات بصـورة عامـة.

لكـن الشـكوى بقيـت فـي موطـن الإنسـانية والاجتماعيـة، فـي مدارسـها ولـدى علمائهـا، مـن عـدم قـدرة هـذه العلـوم علـى تحقيـق نجاحـات باهـرة فـي البحـث عـن الإنسـان أو فـي الإنسـان، والوصـول إلـى الإنسـان الـذي كان ينشـده الحلـم الأسـطوري.

بالرغـم مـن اختـلاف وتعـدّد أنـواع البحـوث العلميـة فـي العلـوم الإنسـانية والاجتماعيـة وانقسـامها بيـن نظـري وتطبيقـي، إلا أنَّ هـذه البحـوث اندرجـت وفـق الترتيـب الآتـي:

١- البحـوث الاسـتطلاعية وعرفـت أيضـاً بالبحـوث الكشـفية (exploratory research) وتسـتهدف التعـرّف إلـى الظاهـرة أو المشـكلة المحـددة بغيـة اكتشـاف حقائـق أو أفـكار جديـدة، تسـاعد

(١) Hassan hamali: théologie et anthropologie, in renaissance du monde. Arabe, colloque, Genève, 1975

علـى تحديـد أبعـاد مشـكلة البحـث، ويمكـن لهـا أن تسـتهدف الإجابـة عـن التسـاؤلات أو الفـروض المسـبقة التـي يضعهـا الباحـث.

٢- البحـوث الوصفيـة (descreptive research): يشـتمل هـذا النـوع مـن البحـوث علـى دراسـة الظواهـر، والمواقـف، والمجموعـات، وهـي لا تسـتلزم وجـود فـروض مسـبقة، أو تسـاؤل مسـبق يرتبـط بتوقـع حـدوث الظواهـر أو تحديـد أسـباب تكرارهـا فـي الواقـع، وهـذا يعنـي أنّ مهمـة الباحـث أولاً هـي وصـف الواقـع بـدون أفـكار مسـبقة، إلا أنَّ ذلـك لا يمنـع الباحـث مـن التركيـز علـى جانـب أو جوانـب معينـة مـن موضـوع الدراسـة، بغيـة توضيحهـا، لكـن مهمتـه بالأسـاس هـي وصـف وتدويـن البيانـات وجمـع المعطيـات مـن الحقـل الميدانـي أو مـن السـجلات والوثائـق أو مـن الأشـخاص المعنييـن بالموضـوع... الـخ.

يمكـن للباحـث أن يسـتخدم فـي دراسـته الأسـلوب الكيفـي أو الكمّي. الأسـلوب الكيفـي يصـف الظاهـرة ويوضـح خصائصهـا، أمـا الأسـلوب الكمـي فإنـه يسـتخدم الأرقـام فـي عمليـات الوصـف، وكذلـك الجـداول، ولهـذا فـإن بعـض الباحثيـن يشـيرون إلـى الدراسـة الوصفيـة بأنهـا دراسـة إحصائيـة.

بدايـة اسـتخدام الدراسـة الوصفيـة كانـت فـي القـرن الثامـن عشـر، حيـن أجريـت دراسـة لوصـف حالـة السـجون البريطانيـة، ومقارنتهـا بالسـجون الفرنسـية والألمانيـة، ونشـطت هـذه الدراسـات إجمـالاً

خـلال القـرن التاسـع عشـر مـع فريدريـك لوبـلاي (١٨٠٦-١٨٨٢) بإجـراء دراســات تصــف الحالــة الاقتصاديــة والاجتماعيــة للعمــال فــي فرنســا، مســتخدماً فــي ذلــك المقابـلات والاســتمارات. وخـلال القـرن العشــرين تطــوّرت هــذه الدراســات بشــكل واســع مــع دخــول الحاســوب مجــال البحــوث العلميــة.

تبـرز أهميـة الدراسـات الوصفيـة فـي شـموليتها، وإمكانية اسـتخدامها فـي العديـد مـن الميادين وفـروع العلـوم الإنسـانية والطبيعيـة. ولا يقتصـر الأسـلوب الوصفـي علـى جمـع البيانـات حـول ظاهـرة معينـة بـل يتعـدّى ذلـك إلـى تصنيفهـا وتنظيمهـا بهـدف فهمهـا، ومـن ثـم التوصـل إلـى اسـتنتاجات وتعميمـات.

وفقاً لذلك فإن الدراسة الوصفية تجري على مرحلتين:

الأولــى: الاستكشــاف وجمــع البيانــات: (explorative and formulative stage).

الثانيـة: مرحلـة التشـخيص والوصـف المعمّـق والتصنيـف (diagnostic and intensive stage).

ترتبـط كل مـن المرحلتيـن بالأخـرى. فـي التعبيـر عـن الاسـتنتاجات والتوصـل إليهـا[1].

---

(١) محمّد علي محمّد: علم الاجتماع والمنهج العلمي، الإسكندرية، دار المعرفة الجامعية، ١٩٨٦ ص ١٨٩.

٣- البحوث التشخيصية (diagnostic research) أو البحوث التفسيرية:

وهي البحوث التي تعمل على اختبار الفروض السببية، وتعرض خصائص الظاهرة كمياً وكيفياً بصورة محكمة ودقيقة، يسعى من خلالها الباحث إلى تحديد مدى وجود علاقات سببية بين الظواهر، وغالباً ما تشترك مجموعة من العوامل في حدوث الظاهرة. تُلخّص سمات الدراسات التشخيصية بما يلي:

١- تستخدم الوصف الكمّي أو الكيفي.

٢- تهتم بتحديد العوامل المختلفة المؤثرة أو المتأثرة بالظاهرة.

٣- تتضمن فروضاً توضح العلاقة السببية بين الظواهر.

يمكن القول أنَّ الدراسات التشخيصية أو التفسيرية أكثر دقة وأقل مرونة وأكثر إحكاماً من الدراسات الاستطلاعية والوصفية.

خلاصة القول، أنَّ البحوث العلمية في العلوم الإنسانية والاجتماعية وفي سياق استخدام مناهجها وتقنياتها وأدواتها، على أنواعها، حُسِمت الأمور فيها منذ البداية لمصلحة الفكرة كمحطة أولى ينطلق منها البحث. ولم نلحظ نقاشاً في ما خص هذه المسألة خصوصاً في العلوم الاجتماعية، ولم نقع على تبرير لوجودها أو حول معناها ومغزاها والهدف منها، ووظيفتها ودورها. وحتى

الاتجـاه التجريبـي لا يرسـم أي علامـة استفهام حـول ضـرورة الفكـرة كمحطـة أولـى فـي البحـث.

وهـذا مـا يستدعي السؤال، لمـاذا هـذا الصمـت؟ إنـه سـؤال الريبـة والشـك، بمـا هدفـت إليـه العلـوم الإنسـانية والاجتماعيـة، عندمـا حُسـمت لمصلحـة الفكـرة.

لمـاذا هـذا السـؤال؟ ولمـاذا الشـك؟ لأنَّ النظـر فـي بدايـة النظـام المعرفـي الـذي أنتـج العلـوم الإنسـانية ومناهجهـا، انطلـق أساسـاً مـن مبـدأ العلـة الكافيـة، واندفـع مـن حيـث ديناميتـه الذاتيـة إلـى اقتحـام ميادين جديـدة، فكانـت المعادلـة التاليـة، مـا ينطبـق فـي مـدار العلـوم الطبيعيـة أو العلـوم البحتـة ينطبـق علـى وقائـع العلـوم الإنسـانية، وإلا اختـل مبـدأ العلـة الكافيـة. هـذه مسـألة نجدنـا أمامهـا عندمـا نسـلم بـأنَّ الفكر البشـري يبـدأ بالبحـث عـن العلـل مباشـرة عندمـا يدخـل فـي مواجهـة مع مـا يريـد أن يعبّـر عنـه، أو مـا يريـد أن يعـرف عنـه ويكشـفه ويفهمـه... الـخ. فهـو يريـد أن يكـون لأحكامـه أسـاس. فوحدهـا الأحـكام المثبتـة تُعقـل أو توافـق العقـل. لقـد شـهد الفكـر البشـري هـذا البحـث عـن العلـل فـي مختلـف مراحلـه.

فلمـاذا حسـمت الأمـور حـول الفكـرة فـي العلـوم الإنسـانية؟ ولمـاذا تبـدو ثنائيـة الفكـرة والملاحظـة أسـهل بكثيـر فـي العلـوم الإنسـانية والاجتماعيـة منهـا فـي العلـوم الطبيعيـة؟

المسـألة هنـا ليسـت شـكلية، فنحـن أمـام خياريـن، إمـا تعميـم مبـدأ السـببية للنفـاذ مـن مـدار الطبيعـي إلـى المـدار الإنسـاني، وإمـا مبـدأ العلـة يكـون ناقصـاً، وهـذا الأمـر غيـر ممكـن، لمـاذا؟ لأنَّ مبـدأ العلّـة الكافيـة لا يسـتطيع أن يكـون ناقصـاً، لأنـه بذاتـه ضـروري وشـامل.

إذن نحـن أمـام أمـر يـكاد يكـون حتميـاً، لأنـه «لا يوجـد شـيء بـدون علـة، وإننـا نقبـل بهـذا المبـدأ فـور اسـتماعنا إليـه: إننـا لا نجـد مـا يحكـى مباشـرة شـيئاً مضـاداً لـه، غيـر أننـا لا نجـد مـا يؤمّـن نوعـاً مـن التأمـل المخصـوص بهـذا المبـدأ، أي إنـه يدخـل فـي عـداد الأشـياء التـي تقـوم تلقائيـاً. هـذه الأشـياء اللامباليـة التـي نمـرّ بهـا يوميـاً، وهكـذا نعتقـد أنَّ المبـدأ كان دائمـاً معروفـاً، وهـذا صحيـح بوجـه مـا، وسـوف نـرى بوضـوح أشـد كيـف أنَّ بعـض أصـداء هـذا المبـدأ كانـت مدركـة، ليـس فقـط فـي واقـع الأمـر بالضـرورة، وسـوف نـرى كيفيـة هـذه الضـرورة[١].

لعـب مبـدأ الضـرورة الـدور الأساسـي هنـا، فكانـت انطلاقـة العلـوم الإنسـانية والاجتماعيـة مـن هـذا المبـدأ المـلازم لمبـدأ العلـة الكافيـة. لقـد كان الحديـث عـن مبـدأ العلـة الكافيـة فـي انطلاقـة هـذه العلـوم، مرتبطـاً بضرورتـه واضطراريتـه، فمـن الضـروري، أن نكـون

(١) مارتن هيدغر، مبدأ العلة، ترجمة د. نظير جاهل، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، مجد، الطبعة الأولى، بيروت١٩٩١م. ص ٣٠.

أمـام هـذه العلـوم لضـرورة المواجهـة، هـذه النقطـة الأوليـة، لا يمكـن إزاحـة الفكـر الكنسـي بـلا فكـر مواجـه؛ بديـل، يغطّـي النواحـي كافـة، هنـاك ضـرورة لهـذا الفكـر، ولانطلاقتـه، يسـتلزم اسـتكمال المواجهـة تعميـم السـببية العلميـة، اسـتعارتها مـن العلـوم البحتـة وتوظيفهـا فـي الفكـر الجديـد وعلومـه، لمـاذا؟ لأنَّ ذلـك يسـهّل عمليـة التحكـم فـي المسـار الجديـد والإجهـاز علـى المسـار القديـم (المسـار الكنسـي) أو مسـار الفكـر الكنسـي، لأنَّ عمليـة المواجهـة ينبغـي أن تنقـل المجتمـع الإنسـاني مـن وضعيـة عقديـة إلـى وضعيـة أخـرى، وهـذا يحتـاج إلـى الدخـول فـي معركـة أخـرى، وهـي المعركـة ضـد الوعـي، لأنـه معتبـر مـن بقايـا الفكـر الكنسـي، ينبغـي إزالتـه، فـلا بـد مـن أن يتجابـه العلـم والوعـي، بمـا أنَّ العلـم مـن بقايـا الفكـر الكنسـي وهـذا الفكـر كان ضـد العلـم، فـإن الوعـي هـو كذلـك، هـذه مواجهـة حتميـة بينهمـا، العلـم فـي مواجهـة الوعـي الإنسـاني. تطلّـب هـذا الأمـر إيجـاد ثنائيـة تتمثـل فـي الباحـث/ الموضـوع. لمـاذا؟ أولاً لأنَّ المواجهـة بيـن العلـم والوعـي، تعنـي جعـل هـذا الواعـي مسـتهدفاً. فلسـفة الأمـر هنـا تقـول إن الاسـتهداف يحصـل مـن خـلال جعلـه موضوعـاً للبحـث. أمـام هـذه العمليـة، يصبـح بديهيـاً أنَّ الباحـث هـو فـي مقابـل الوعـي، الموضـوع هـو الوعـي وبالتالـي هـو الإنسـان، فنحـن أمـام الباحـث الإنسـان فـي مقابـل الموضـوع الإنسـان. هـذه نقطـة الارتـكاز، لذلـك كانـت الفكـرة

ضرورية، فكرة الإنساني موضوعاً للبحث، إنسان ينظر في إنسان، يحتاج ذلك إلى التركيز على الوعي/ اللاوعي، إنه طموح نحو جب ما قبل هذا النظام المعرفي من مشاريع معرفية ومنها المعرفة الدينية وحتى المعرفة السياسية.

لقد شكّل العبور من العلوم البحتة إلى العلوم الإنسانية، فتحاً في الميدان الإنساني، ولوحظ في الواقع الملموس لهذا الميدان جملة من الصفات:

- يصعب الإحاطة بموضوع يوجد في شكل زمني متتالٍ، فهو دائم الحدوث وليس موضوعاً حادثاً، أي إنّ الموضوع ليس نتاجاً وإنما سيرورة.
- ليست حرّة هذه العلوم في التعامل مع الموضوع (الإنسان) على أنه مادة بحتة.
- لا تتمتع بسمة الضبط؛ من أولى ميزات الظاهرة الإنسانية تداخل العوامل والتغيرات فيها.
- الظاهرة في تغيّر مستمر ودائم. وأثناء الملاحظة نفسها تتغير الظواهر الإنسانية وتتخذ اتجاهاً مغايراً لوجهتها الأولى.

- يؤدّي إدخال عامل معين إلى تعديل في العوامل الأخرى[1].

إننا نقترب هكذا من القول بأنَّ صدقية العلوم الإنسانية ترتبط، بحركتها البحثية وليس بانتمائها الفكري، وارتباطها واختلاطها بالعلوم البحتة، ومهما يكن من أمر، فإن المسار الذي سلكته تلك العلوم ومدارسها سواء أكانت ماركسية أم هي متأثرة بدوركهايم وفوكو وسارتر وستراوس وغيرهم، أبقاها ملتبسة، رغم ما راكمته من معرفة، وأبقاها مشكوكاً في عمليّتها، لعدم تمتعها بشروط عملية كافية. لقد نشأت مدارس ومذاهب واتجاهات وايديولوجيات تتناسل بعضها من بعض، تحكمها فرضيات تملك حداً من التماسك، وهي تجريبية بقدر ما، تشكل اعتقادات وآراء وسياسات وأخلاقيات، هي باختصار موضوعها الرئيسي هو الإنسان[2]، وأفعاله ونشاطاته وأقواله، لقد سميت المحاولات التي استهدفت دراسة كل ذلك علوماً إنسانية واجتماعية، منفصلة عن العلوم البحتة والعلوم الطبيعية. لقد بتنا أمام علوم جعلت

---

(١) إبراهيم، عبدا لله: علم الاجتماع (السوسيولوجيا)، المركز الثقافي العربي الطبعة الثانية، بيروت، ٢٠٠٦م. ص ١٩٨.

(٢) راجع: خواجة، د. أحمد، أوهام المؤالفة بين العلوم والإيديولوجيا، مجلة الفكر العربي، العدد ٥٥، كانون الثاني، شباط ١٩٨٩، ص ١٤٤.

موضوعها الاجتماعي داخل المجتمعي. الأفعال والأقوال داخل البنية المجتمعية. الـ«نحن» والـ«أنتم» والـ«هم» موضوعاً للبحث، إنه هو الموضوع الحقيقي، الفكرة الموضوع، فهو تلك الوحدة من الأوضاع والمشاعر والأفكار والأفعال التي يفرضها الاجتماع البشري[1].

---

(١) Claude rivière, l'objet social, op, cite, P. 248.

ج- تعدّد مناهج البحث العلمي

هل يوجد تعدّد مناهج أم ماذا؟

شـاع فـي معاجـم اللغـة العربيـة أنَّ المنهـج يعنـي الطريـق البيّـن الواضـح، ففـي تـاج العـروس: «النهـج بفتـح فسـكون: الطريـق الواضـح البيِّـن وهـو النَّهْـج محركـةً أيضـاً؛ قـال أبـو ذُؤيـب: بـه رُجُمـاتٌ بَيْنهـنَّ مَخـارِمٌ... نُهُـوجٌ كَلَبّـاتِ الهَجائِـنِ نِيـحُ وطُـرُقٌ نَهْجَـةٌ: واضحـةٌ المنهَـج بالفتـح. والمِنْهـاجِ بالكسـر وفـي القـرآن الكريـم «لِـكُلٍّ جعَلنـا مِنكُـم شِـرعَةً ومِنهاجـاً». المِنهـاج الطريـق الواضـح.

وفـي لسـان العـرب نهـج طريـقٌ بيّـنٌ واضِـحٌ وهـو النهـج ،قـال أبوكبيـر فأجَزْتُـه بأَقَـلَّ تحسَـبُ أثْـرَهُ نهجـاً أبـان بـذي فريـغٍ تَخْـرَفِ والجمـعُ نَهجـاتٌ ونُهُـجٌ ونُهـوجٌ، قـال أبـو ذؤيـب بـه رُجُمـاتٌ... وطُـرقٌ نَهْجـةٌ وسـبيلٌ مَنْهَـجٌ كَنَهـجِ ومَنْهَـجُ الطريـق وضَحُـه والمنهـاج كالمنهج...الـخ. ممـا ورد فـي مختـار الصحـاح والمعجـم الوسـيط والصحـاح فـي اللغـة، وفـي الكليـات وغيرهـا مـن المعاجـم.

ولفظ كلمة منهج هو ترجمة للكلمة الفرنسية méthode ومثيلاتها في اللغات الأوروبية الأخرى، استعملها أفلاطون بمعنى البحث أو النظر أو المعرفة، واستعملها أرسطو بمعنى بحث، والمعنى الاشتقاقي الأصلي لها يدلّ على الطريق أو الهدف المطلوب.

عملياً لم يأخذ هذا المصطلح معناه الحالي إلّا في المراحل التي بدأ ما يعرف بعصر النهضة الأوروبية، حين ظهر لأول مرة في القرن السادس عشر على يد راموس وزاربيلا ومولينا، بين ١٥٧٨، و١٦٠٩؛ ثم شاع استخدامه في كتابات فرنسيس بيكون في كتابه «واعد المنهج التجريبي» ١٦٢٠م، وفي كتاب ديكارت «مقال في المنهج» ١٦٣٧م. وهما قد عاصرا حركة التحول في العلم الحديث، وكان مصطلح الطريقة أو المنهج يعني بالدرجة الأولى المباحث المنطقية التي تؤدّي إلى حسن السير بالعقل، أو تستكمل النقص الأرسطي الملحوظ، وتؤلف منهج العلوم التجريبية. وبذلك بدأ التحول من النظر في مواد القضايا القياسية، إلى التفكر في مناهج العلوم. ثم جاء أصحاب «منطق بور رويال» عام ١٦٦٢م. فاهتموا بتحديد المنهج بأنه «فنّ التنظيم الصحيح لسلسلة من الأفكار العديدة، إما من أجل الكشف عن الحقيقة، حين نكون جاهلين بها، وإما من أجل البرهنة عليها حين نكون عارفين بها»، وأخذت تظهر

مجموعـة مـن التعريفـات للمنهـج منهـا: تعريـف مادليـن غرافيتـش مثـلاً: هـو مسـار عقلانـي للفكـر مـن أجـل الوصـول إلـى الحقيقـة، أي إنـه مجموعـة عمليـات ذهنيـة، تحليـل وتفسـير. (هـل هـذا الـكلام يكفـي؟) فيمـا عنـد دبـل بايـل: هـو مسـار منطقـي، وهـو عمليـات تحليـل هادفـة إلـى جعـل الواقـع قابـلاً للفهـم، وهكـذا تتوالـى التعريفـات التـي كانـت فـي معظمهـا ملتبسـة.

مفهـوم المنهـج هـذا شـيمته شـيمة معظـم المفاهيـم الملتبسـة (حريـة، ثقافـة، جدليـة... الـخ.) قـد يكـون مرسـوماً مـن قبـل بطريقـة تأمليـة مقصـودة، وقـد يكـون نوعـاً مـن السـير الطبيعـي للعقـل لـم تحـدد أصولـه سـابقاً، وهـذا تلقائـي.

نحـن بهـذه الحـال أمـام نوعيـن مـن المنهـج: الأول: تأملـي، والثانـي: تلقائـي.

التبصّـر فـي هذيـن المنهجيـن أو النوعيـن مـن المنهـج، يجعلنـا نقـف أمـام، أو بالأحـرى يقودنـا إلـى التدقيـق فـي مسـألة مهمـة جـداً تتعلّـق بأنمـاط المعرفـة، فـي مبـدأ المعرفـة وكيـف تحصـل، مـا هـو المسـار الـذي سيسـلكه الإنسـان (العـادي أو العالـم) للوصـول إلـى المعرفـة، إذا مـا أخذنـا فـي الاعتبـار أنَّ الإنسـان العـادي أيضـاً باحـث عـن المعرفـة. انطلاقـاً مـن تعـدد الاحتياجـات، ومراتـب الجهـل بالواقـع المعيـش والمحيـط، فـإنّ النزعـة إلـى المعرفـة لـدى الإنسـان تلفتنـا إلـى

أنَّ الإبداعات العلمية التي تحقّقت على مرّ التاريخ، لم تكن بحاجة إلى برمجة بالمعنى الدقيق للكلمة، بقدر ما كانت ترتبط بسلسلة النقلات الحرة التي أمنها العقل البشري والمعرفة بشقيها (القبلي والحصولي).

التعمق أكثر في هذه المسألة يأخذنا إلى البحث في أنماط المعرفة، أي لا بد من طرح سؤال حول أنماط المعرفة، ما هي أنماط المعرفة العلمية (الحصولية)؟

المتعارف عليه أنه يوجد نمطان من المعرفة، إما المعرفة الاستقرائية، وإما المعرفة الاستنباطية. ومنذ القدم اشتغلت العلوم وفق الآتي:

- علوم الرياضيات وعلوم المنطق. تمثل، في طبيعتها وطبيعة موضوعها، المعرفة الاستنباطية.
- العلوم الطبيعية والفيزيائية والإنسانية، تمثل، في طبيعتها وطبيعة موضوعها المعرفة الاستقرائية.

مع ظهور المنهج العلمي المعاصر، سُجّل تقدم ملحوظ للممارسة العلمية بالطرائق التجريبية المميّزة لعلوم «المشاهدة، والاختبار» من دون الرجوع إلى المنطق الأرسطي، الذي وجهت إليه اتهامات عديدة: إنه منطق شكلي، وهو لغوي، وهو منطق غير

منهجـي، وشـبه جدلـي، وغيـر حركـي. هـذا النقـد لا يعنـي أنـه يسـتند إلـى أنَّ أرسـطو قـد أهمـل الاسـتقراء، لا، أرسـطو قـال بـأنَّ «إقامـة قضيـة عامـة... لا يمكـن أن تتـم عـن طريـق الاسـتنباط، وإنمـا بالالتجـاء إلـى الأمثلـة الجزئيـة التـي يكمـن فيهـا صـدق تلـك القضيـة العامـة»[1]. إنمـا يسـتند النقـد هنـا إلـى اتجـاه أراد أن يأخـذ العلـم الإنسـاني نحـو طريقـة فـي البحـث ملتزمـة المنحـى الـذي اتخذتـه علـوم الفيزيـاء والطبيعـة أكثـر.

فـي هـذا الإطـار بـرز الاتجـاه التجريبـي (اسـتقرائي)، والاتجـاه الرياضـي (اسـتدلالي)، بـدأ الاتجـاه الأول مـع فرنسـيس بيكـون، ثـم جـون سـتيوارت مـل، وصـولاً إلـى كلـود برنـارد، أمـا الاتجـاه الثانـي، فقـد بـدأ مـع ديـكارت وتطـور مـع حركـة الاكسـوماتيك الحديـث (حركـة النقـد الداخلـي فـي الهندسـة)، وصـولاً إلـى برترانـد راسـل.

- المنهـج التجريبـي: هـو منهـج العلـوم الطبيعيـة، ومنهـج العلـوم الإنسـانية أيضـاً، ويعتمـد الاسـتقراء.

- المنهـج العلمـي الرياضـي: هـو اسـتدلالي، تطـور مـع ديـكارت الـذي وضـع الهندسـة التحليليـة، معتبـراً العلـم الرياضـي العلـم الرابـط

(١) د. فضل الله، مهدي، مدخل إلى المنطق (المنطق التقليدي) بيروت، دار الطليعة، ١٩٨٥م. ط ٣. ص ٢٤٥.

بيـن جميـع العلـوم، ومميـزاً بيـن الاسـتدلالي والحدسـي، بطريقـة منهجيـة تُعتبـر أسـاس تطـور العلـم الرياضـي المعاصـر[١].

كِلا المنهجيــن منبثقــان فــي الأســاس مــن منهجــي الاســتقراء والاسـتنباط، إلَّا أنَّ عمليـة تطويرهمـا ارتبطـت بالتطـور والتبـدل الـذي طـرأ علــى واقــع الحيــاة الإنســانية، وبالتالــي أباحــت ضــرورات تطــور العلــوم، المرتبطـة بضـرورات الثـورة والنهضـة، ومـا عـرف بالتنويـر، إمكانيـة تطويـر مناهــج العلــوم، وبتنــا أمــام المنهــج العلمــي المعاصــر.

يبـدو رغـم كل المظاهـر أنـه ليـس مـن السـهل علـى الإنسـان معالجـة مسـائل المعرفـة، وطرائـق الحصـول عليهـا. لقـد اسـتطاع الفلاسـفة والعلمـاء التحـدّث عـدة قـرون، عن العلـم والمعرفة انطلاقـاً من الحدس ومـن التجربة، وجـرى التسـليم أنَّ امتلاك الإنسـان للمعرفـة يأتي من طريق الاسـتقراء أو من طريـق الاسـتنباط. ودار النقـاش طويـلاً حـول أي مـن المعرفتيـن هـي الأصح، المعرفـة بالاسـتقراء أم المعرفـة بالاسـتنباط؟ ومـع ذلـك، فـإن جوابـاً قطعيـاً عـن هـذا السـؤال والنقاشـات المتعلقـة بـه لـم تحسـمه البشـرية؛ الصعوبـة فـي الإجابـة القطعيـة أو الحاسـمة التـي يمكـن أن تنهـي النقـاش ويجـري

(١) الفندي، د. محمّد ثابت، فلسفة الرياضة، بيروت، دار النهضة العربية، ١٩٦٩م. ط١.

التسليم بها، لم تكن في يوم من الأيام أعسر مما هي عليه الآن، بالرغم مما طرأ على العلوم من تطوّر في ميادين الطبيعة والرياضة والإنسانيات. وبقي مشكل آخر يوازي هذا الأمر أهمية هو المعرفة، مدى دقتها وصدقيتها، وأحقيّتها. أن يشكل تاريخ المعرفة وطرائق الحصول عليها أو كيفية الحصول عليها جزءاً لا ينفصل عن المعرفة نفسها، وهذا يعني أنَّ العلوم والمعارف التي جرى تحصيلها بأي من الطرائق وتحت أي من العناوين في المراحل التاريخية السابقة، سواء بوساطة الاستقراء أو الاستنباط وفق المنطق الصوري أو غيره، وسواء تحت عنوان العلم أو الفلسفة أو الأسطورة أو غير ذلك، في ميادين الطبيعة والرياضيات والإنسانيات، لم تسقط مشروعيتها أمام العلم الحديث، ومناهج العلوم المعاصرة، أو التمثلات التي يتمثل بها ويتخفّى بها الاستقراء والاستنباط، مما يعرف بالمنهج التجريبي، والوظائفي، والعقلاني، والتحليلي، والوضعي، والكمي... الخ.

بالتأكيد، يمكن أن نكون أمام عملية النقد، وعلى هذا الأساس فإن ما نراه اليوم من ماهية للعلم الحديث وطرائق تحصيله، لم يكن يراه من سبقنا في ما مضى من القرون، تبعاً لاختلاف الأزمان والتطوّر الذي شهدته. فهل تنجح محاولات تقديم البديل لطرائق المعرفة والعلم، وتقديمها على أساس أنّها الوحيدة التي تمكّن

الإنسان من الاكتشاف والتطور والتقدّم وتحصيل المعرفة...؟ الخ. سيضعنا ذلك أمام مشكلة وجودية، تتمثّل في وجود العلم نفسه. وما هو موجود به أو بدونه. لماذا؟ لأننا هنا أمام حقيقة قوة الوجود الإنساني. هل يتحقق العلم دون تحقق قوة الإنساني، أو تحقق الإنساني؟ بالمعنى الذي يعطي الإنسان مكانة أعلى أو فوق مكانة الموجودات الأخرى أو يسند إليه عمليات إنتاج العلم والتقدّم والتطوّر والتغيّر والتبدّل. مهما يكن من أمر، فإن المعرفة سواء جرى تحصيلها بواسطة الاستقراء أو بوساطة الاستنباط، أو من خلال الأشكال التي يتخذها ويتخفّى بها الاستقراء، (التجريب والعقلانية والوصفية... الخ.)، فإنها معرفة الإنسان العارف العالم، إنها معرفة العاقل وصاحب العقل، معرفة الإنساني الذي لا يمكن استبعاده، مهما كان، وتحت أي مبرر. لقد كان الإنسان ولا يزال فاعلاً قادراً على الحضور والتعبير والوعي.

كلامنا هذا لا يعني بحال من الأحوال، ما ذهب إليه ديكارت. إنَّ قوة الحضور الإنساني وتحقق وجوده بوساطة العقل إنّما أمَّنت للإنسان أن يتمايز، وأمّنت له التطور الاجتماعي والرقي المعرفي والحضاري هذا ما نسعى إلى قوله. لقد ذهب ديكارت إلى القول بأنَّ الوجود الإنساني لم يعد بعد الآن مضموناً من قبل الله، بل بتوافر الفكر الواضح، فأنا أفكر إذاً أنا موجود.

صحيح أنَّ الإنسان قد استفاد من امتلاكه للعقل، فتسلطن على الكون وموجوداته، إلّا أنَّ ذلك لم يحد من هلعه وخوفه، وبمعنى أصح لم يتخلص من الهلع والخوف اللذين يشعر بهما باستمرار. لقد مكّن التحكم الإنساني في العديد من الموجودات، تأمين وجوده، وتقليص دائرة الخطر، وذلك بوساطة الكشف العلمي، إلّا أنّ قوة العلم وقوّة العقل لم تمكّنه من اكتشاف أسرار جمة في هذا الكون ولم تمكّنه أيضاً من التحكم في العوامل الطبيعية الأكثر تأثيراً فيه. صحيح أنه عرف الكثير عنها، إنما رغم التقدم العلمي الذي توصل إليه، خصوصاً في القرن الأخير، بقي جاهلاً كيفية تأمين نفسه من الهلع والخوف معلومي المصدر أو مجهولي المصدر. وبالتالي فإن وجوده لم يتحقّق بقوّة عقله وعلمه، ولا يزال هذا الوجود غير مضمون، وبالتالي فإن الحضور الإنساني أصلاً، غير متحقق لولا الوجود الإلهي وما يؤمّنه اللّه للإنسان.

لماذا نقول هذا الكلام؟

أولاً: لأننا نجد أن ما حققه الإنسان بوساطة العلم والمعرفة من تقدم وتطور خصوصاً في القرن الأخير (٢١) إنما كان بامتلاكه العقل وقوة حضوره في الحياة الإنسانية، سواء كان هناك دور للوعي أو غير الوعي أو لم يكن.

ثانياً: لأنَّ العقل هو الذي أباح للإنسان التعرف إلى كيفية

البحث عن المعرفة والعلم، وتحديد مناهج البحث، والتي تحددت أصلاً بالاستقراء والاستنباط، وأنَّ هذا العقل هو الذي يسعى إلى الاحتيال العلمي، ويحاول إقناعنا بمناهج متعددة هي في حقيقتها أشكال يتخفى خلفها أو بها الاستقراء الأكثر هيمنة في العلوم الإنسانية على ما يقتنع بذلك الإنسانيون، والاستنباط الذي يبسط سلطانه أيضاً في هذه العلوم متستراً حيناً وغير متستر أحياناً أخرى.

إنّ استكمال هيمنة الفكر الموضوعي، المنطلق من المبدأ الملحاح، مبدأ العلة، يحتاج إلى استكمال فرض السلطة على مناهج البحث ومركبات التفكير الإنساني، إذ لم يعد كافياً العمل وفق مبدأ الضرورة، بعدما مرّت قرون على إزاحة الفكر الكنسي الذي كان مهيمناً على نواحي الحياة الإنسانية كافة، وأصلاً، لم تتم إزاحة هذا الفكر كلياً، إلّا من بعض النواحي، وبقي متغلغلاً في نواحٍ أخرى، وإنّ التصدي العلمي لهذا الفكر، انطلق أصلاً، من نقطة أساسية يقول بها الفكر الديني وهي اللحمة، لكن كان على الفكر العلمي أن يذهب إلى ضرب مسألة الوعي الإنساني، التي يعطيها الفكر الديني دوراً، ليجري انفصاماً تاماً بين الإنسان والموجودات الأخرى، ويعطي دوراً أول للإنساني في تحقيق ضمانة استمرارية وجوده، بعيداً عن اللّه. (نقل التبعية من سلطة الكنيسة إلى سلطة أخرى).

في الحصيلة، تعدد المناهج مرتبط بتمكّن الإنسان من تحقيق هذا التعدد. لقد حقّق إمكانية وجود المنهج الاستقرائي والاستنباطي والمنطق، وحقّق تطوراً ما في هذا السياق، لكنه إلى الآن لا يشعرنا ما يُقال حول مناهج «التجريب، والعقلانية أو الموضوعية، والنقد والتحليل... الخ»، إننا أمام تحقّق مناهج جديدة، إنما نحن أمام أشكال مختلفة لاستخدامات الاستقراء والاستنباط.

وبالفعل لا شيء يثبت حتى الآن، أنَّ تعدّد المناهج المعمّم في العلوم الإنسانية والاجتماعية، يؤدّي حكماً إلى الإلغاء أو الاستبدال أو التخطّي للاستقراء والاستنباط، وإنما يظهر نسبة عالية من التجديد والتخفي بأشكال متعدّدة.

إن التعدّد المثار في مجال العلوم، ناتج في الأصل من تغييب الموضوعية العلمية، وحضور قوة احتكار الحقيقة. وهذا ما وضع الفكر الإنساني المعاصر أمام مشكلة ليست في الأصل حقيقة مطلقة، وأخذ يعمل آلياً من خلال توهمه امتلاكها ووضع سلطة لامتلاكها، أي امتلاك تعدد المناهج.

إن القفزة العلمية التي تحققت ابتداءً من الثورة الصناعية وما تلاها، لا يبرر أبداً، عمليات تأصيل مبدأ تعدد المناهج، الذي ينزع نحو امتلاك الحقيقة. إن تكسير مبدأ وجود منهجين سبيلاً للمعرفة، وتأهيل مبدأ تعدّد المناهج، إنما يأتي في سياق إرساء قواعد

أنتروبولوجيـة تقـوم عليهـا مبـادئ التعـارف والتـداول بيـن الأنـا والآخـر، تكريـس مبـدأ الانفصـام، بيـن الأنـا (الإنسـاني) والآخـر (الإنسـان الآخـر، غيـر الإنسـاني) تكريـس مبـدأ الثقافـي والتاريخـي والعلمـي، فـي مقابـل غيـر الثقافـي وغيـر التاريخـي وغيـر العلمـي (البدائـي).

الفصل الثالث

الموضوع والبحث في العلوم الإنسانية والاجتماعية

أ ـ بناء الموضوع وتحديده وتعيينه

١ ـ كيف يبنى الموضوع؟

ليس الموضوع شيئاً جاهزاً نجده أمامنا، بل إن الموضوع العلمي يبنى بجهد الفكر، إنه يبدأ من النظرية، الفكرة العامة. هذا الكلام الذي يتناوله علماء الاجتماع في حديثهم عن الموضوع، معتبرين أنه لا يغفل الواقع، بل يتعامل معه تعاملاً إيجابياً، يحتاج إلى نقاش ينطلق أولاً من القول أو السؤال: كيف برزت الفكرة؟ من أين جاءت؟ إذا كان علم الاجتماع يدرس الظواهر الاجتماعية، وكذلك العلوم الإنسانية، تدرس الظواهر الاجتماعية، كيف يضع الباحث في هذه العلوم فكرته لينطلق منها في بناء الموضوع، إنه ينظر إلى الواقع، وبالتالي فإن الواقع هو الذي يؤمن موضوع البحث. يعني ذلك أنه لا بدَّ من تلاقي الفكر (النظر) مع الواقع لإنتاج الفكرة التي ننطلق منها في تحديد موضوع البحث وبنائه. في هذه الحال، يصبح الواقع موضوعاً للبحث، من خلال ما حددناه للدراسة وفصلناه

نظرياً بشكل موقت عن محيطه وحولناه إلى مفردات نظرية، يكون التناسق قائماً بينها.

هنا ينشد الباحث بعيداً عن الواقع، ويحاول أن يجعل عمله أشد واقعية من الواقع الأساسي نفسه، فينحاز إلى موضوعه، (هنا تظهير لمعنى الموضوعية. انحياز الباحث إلى الموضوع، ووضعه موضع الواقعية الشديدة). ويبذل جهداً في إعادة تركيب الوقائع وفق أنظمة عقلانية متماسكة، تبيّن ترابطها وتوفّر القدرة على التحكم فيها عبر اكتشاف قوانينها.

عندما يدرس العالم أو الباحث في العلوم الإنسانية والاجتماعية، ظاهرة ما، هل يحق له أن يقيم بناءً نظرياً يدرس على أساسه الظاهرة؟ أم أنَّ عليه أن ينظر في الظاهرة بما تحمله من عناصر، وما تظهره من وقائع، وما تخفيه فيدرسها؟

إننا هنا أمام إشكالية الموضوعية عينها في بناء الموضوع. فإذا كان الموضوع بالأساس في العلوم الإنسانية والاجتماعية، هو الإنسان، فإن ما ينتجه هذا الأخير من ظواهر ووقائع هو الذي يدرس في ميادين العلوم الإنسانية والاجتماعية إلى جانب درس الإنسان كإنسان + كيف ندرس ظواهر ينتجها الإنسان؟ وكيف ندرس الإنسان؟.

القول بأنَّ المنطلقات الأساسية في بناء موضوع الدراسة هي

بجهد نظري، يعني موقفاً مسبقاً يفرضه الباحث، وهذا يعني انحيازاً موصوفاً، تجاه فكرة الباحث ونظريته. إنها التقليد الذي مارسته هذه العلوم للعلوم البحتة. نحن نعرف أنَّ الإنسان لا يمتاز بالثبات بل بالنمو والتغيّر في مستوياته كافة، وكذلك فإن ما ينتجه الإنسان من ظواهر اجتماعية، ووقائع هي في حال تغيّر وتبدّل، فإذاً كيف ندرسها في لحظة ما دون أن نلحظ مراحل التغير وما طرأ عليها أثناء دراستنا؟ كيف يمكن دراسة موقف ما في لحظة ما دون الانتباه إلى ما يتأثر به هذا الموقف في الزمان والمكان؟ كيف نقوم بإعادة تركيب المواقف والوقائع نظرياً، ولا ننتبه إلى أنَّ في لحظة إعادة التركيب تحدث تغيّرات؟

إنّ القول بقدرة الجهد التفكيري على إعادة تركيب الوقائع وفق أنظمة عقلانية متماسكة، تبيّن ترابطها وتوفّر القدرة على التحكّم فيها عبر اكتشاف قوانينها. هذه القوانين هي ما يُعيد المتغيّر المختلف من الوقائع إلى الثابت والمعلل؛ بمعنى تُعطي عللاً كافية، فيظهر لنا مدى رزوح العلوم الإنسانية والاجتماعية تحت وطأة العلوم البحتة، ومدى تدخّل الرياضيات في هذه العلوم على غرار العلوم البحتة.

إنه من السهل إعطاء علل كافية لإثبات الروابط التي نقرر

وجودها، أو نحكم بين الظواهر، وهنا لا يعود مهماً ما إذا كانت الروابط ضرورية أو محتملة، بل المهم هو أن تعطى علة كافية لضرورتها أو لاحتمالها. يغدو هذا التعليل في العلوم الحديثة بمثابة الروابط، والنظم التي تجمع الروابط. وكلما أسندت هذه النظم إلى قواعد بسيطة ذات علة كافية، اكتسبت صفة التناسق والتكامل والبديهة. وكلما اكتسبت مثل هذه الصفات، أصبحت قادرة ليس على تفسير ذاتها بل على تفسير غيرها من النظم، أو بكلام أدق على إدخال ما يبدو مبعثراً من الأشياء في نظم محسوبة، وبالتالي موضوعية...

هكذا وبكل بساطة يطلقون أبحاثهم، من فرضيات، وليس من وقائع، من أحكام معللة، وليس من عناصر ومعطيات تتشكل منها الظاهرة. (سنتحدث لاحقاً في موضوع الفرضية).

في تعابير إضافية، إن موضوع البحث في العلوم الإنسانية والاجتماعية هو المجتمعي الذي يتألف من الـ«نحن» والـ«هم» والـ«أنتم»، من مجموع الناس الذين يمارسون الثقافي والاجتماعي والسياسي والتربوي والديني... الخ، ويقيمون العلاقات والروابط، ويتفاعلون فيما بينهم، ويُظهرون المشاعر والأفكار والأفعال. وهي جميعاً تعكس طبيعة الجماعة من حيث كونها جماعة في ذاتها، ولا

تعكس طبيعة أفرادها فقط، فهذه الوقائع موجودة على هذه الشاكلة لأنَّ الجماعة موجودة على هذه الشاكلة أيضاً[١].

هكذا الجماعة تنتج وقائع وظواهر، يلعب الفكر الإنساني دوراً مركزياً في إنتاجها، لكن هذا الإنتاج متعلق بالجماعة، وخصوصيته متعلقة بخصوصيتها. هذا ما يمثّل موضوع البحث في العلوم الإنسانية والاجتماعية. إن تحديد الموضوع وبناءه، ينطلق من النظر إلى الوقائع، هكذا، فإن الفكر والنظرية المعطاة مكانة كبيرة في البحوث العلمية، لا بد وأن يكون للوقائع دور في بلورتها لدى الباحث، لما لهذه الوقائع من تأثير في عمليات التطور والتغيّر والتبدّل داخل المجتمع، وهذا ما ينبغي أن يهتم به الباحث في العلوم الاجتماعية والإنسانية.

إن المعطيات التي تثير الانتباه، وتدفع إلى مزيد من الاهتمام، بغية معرفة أكثر حول الظاهرة التي تقرر دراستها، هي التي تطلق الفكرة وتبدأ بتوليدها، إضافة إلى ما لدى الباحث من تراكم معرفي وثقافي، وما يحصل عليه من معلومات من خلال المصادر والمراجع.

إن القول بأنَّ الباحث لديه فكرة عن «الكلّ المجتمعي، وحبكة الفهم فيها (من الكل المجتمعي إلى الأفراد)، وعن طريقها يتفحص

---

(١) Marcel Mauss, Essais de Sociologie, Minuit, Paris, 1968, P. 8.

عالـم الاجتمـاع محسـوس الحيـاة اليوميـة فيختـار منهـا معطيـات محسوسـة دون غيرهـا، ويدمـج بينهـا ويجرّدهـا وينظرهـا فـي تركيـب يعبـر عـن طابعهـا النموذجـي. ويصـل فـي غايـة الأمـر إلـى موضوعـه»[1]، يحتـاج إلـى تدقيـق أكثـر، ذلـك أنَّ حبكـة الفهـم لـدى الباحـث ليسـت كافيـة للقـول باختيـار الموضـوع. إن الوقائـع التـي تلفـت انتبـاه الباحـث هـي التـي تثيـر حبكـة الفهـم، إلّا إذا كان المقصـود أن ينطلـق الباحـث مـن فكـرة مسـبقة، مقـرراً البحـث فـي أمـر مـا وينـزل إلـى الميـدان يبحـث عـن المعطيـات اللازمـة لذلـك. حينئـذ نكـون أمـام نـوع مختلـف مـن الأبحـاث.

الأبحـاث التـي يمكـن القـول بأنهـا واقعيـة، هـي التـي تنطلـق ممـا يلفـت الانتبـاه وليـس ممـا يتقـرر مسـبقاً.

إن النقــاش هنــا ينطلــق مــن كــون الموضــوع هــو الإنســان، هــو المجتمعــي.

مثلمـا آثرنـا القـول، أنَّ الموضـوع لا يُقـدّم نفسـه جاهـزاً للدراسـة، وأنَّ الباحــث هــو الــذي يبنــي موضوعــه، كذلــك، فــإن أفــكار الباحــث لا ينبغــي أن تقــدم الموضــوع، إلّا إذا كنــا أمــام وضعيــة بحثيــة تتطلــب

---

(١) إبراهيم، عبد الله، علم الاجتماع (السوسيولوجيا)، المركز الثقافي العربي، م. س. ص ٥٩.

ذلـك، (شـركة، مؤسسـة، رسـمية، وغيـر رسـمية، محليـة أو دولية...الـخ) عندهـا، فـإن الباحـث يعمـل وفقـاً لمـا يحتـاج إليـه رب العمـل، أمـا الباحـث الفعلـي، المسـتقل، العالـم، فـإن موضـوع بحثـه ينبعـث مـن الوقائـع التـي تحـدث داخـل المجتمعـي، وتسـاعده حبكـة الفهـم التـي يتحـدث عنهـا د. عبـد اللـه إبراهيـم فـي بنـاء موضوعـه.

إنَّ موضـوع البحـث ليـس مجـرد معطـى أو فكـرة، بـل ينبغـي البحـث للتوصـل إلـى موضـوع البحـث. إنَّ مـا ينبغـي فعلـه هـو بنـاء الموضـوع مـن خـلال تجميـع المعطيـات اللازمـة وتلاقحهـا مـع الفكـرة وتظهيرهـا، لتعييـن الموضوع.

٢ ـ الموضوعية والذاتية في اختيار الموضوع

تثـار مسـألة الموضوعيّـة والذاتيّـة فـي العلـوم الإنسـانية والاجتماعيـة منـذ بدايـات هـذه العلـوم، وكانـت ولا تـزال موضوعـاً لخلافـات شـديدة، ووجهـات نظـر متعـددة، وقـد ارتبطـت المناهـج العلميـة لهـذه العلـوم، مثلمـا المناهـج العلميـة للعلـوم البحتـة، بإشـكالية الموضوعيـة والذاتيـة.

الموضـوع هـو الموجـود المـدرك بوسـاطة الإحسـاس، والخاضـع للـدرس والتجربـة.

الذات وينسب الذاتي إليها، وهي بمعنى الجوهر والهوية، والشخصية، ويُعبّر عنها وعما بها من شعور وتفكير.

تُعبّر الموضوعية عن إدراك الأشياء مثلما هي عليه، دون انحياز أو تدخّل للأهواء والأفكار بمعنى تجاوز الذات.

هذه الإشكالية التي طُرحت في العلوم البحتة هل يمكن النظر إليها من المنظار نفسه في العلوم الإنسانية والاجتماعية؟

منذ أن انطلقت العلوم الإنسانية والاجتماعية في الغرب، جرى المزج بين مناهج هذه العلوم ومناهج العلوم البحتة، وبالتالي جرى التعامل مع الظواهر الاجتماعية، مثلما يتمّ التعامل مع الظواهر الطبيعية، ولم يتنبه كثير من الباحثين والعلماء عندنا إلى أنَّ هذا الخلط الغربي ناتج من رؤية معرفية أرادت التصادم مع الرؤية الكنسية، خصوصاً في مسألة الوعي الإنساني، فكانت الضرورة ملحّة للتعامل مع الظاهرة الإنسانية مثلما يجري التعامل مع الظاهرة الطبيعية؛ كذلك لم يتنبه هؤلاء إلى أنَّ ثمة فروقاً بين الظاهرتين وهي فروق جوهرية، تتمثل أولاً في أنَّ الإنسان كائن ذو قصد، لديه عقل وأفكار ومشاعر ودوافع، وهذا ما يحدد سلوكه وتصرفاته، حيث تلعب الدوافع الناتجة عن الفكر والضمير، والإحساس، والذكريات والتأمل والطموح والتطلعات، دوراً مركزياً في سلوكه وفي حدوث الوقائع الاجتماعية وظهور الظواهر، فيما الكائنات

الأخـرى لا تمتلـك هـذه الدوافـع، وبالتالـي فـإن مـا ينتـج مـن ظواهـر طبيعيـة لهـا سـمات مختلفـة عـن سـمات الظواهـر الإنسـانية، وهـذا مـا يحتـم الاختـلاف فـي دراسـة كل مـن الظاهرتيـن، والاختـلاف فـي مناهـج الدراسـة وأيضـاً فـي طرائـق التحليـل والتفسـير والشـرح.

مثلمـا قلنـا سـابقاً، المجتمعـي يتضمّـن نتـاج الاجتماعييـن، الـ«نحـن» والـ«هـم» والـ«أنتـم»، الأفـراد والأسـر، والمؤسسـات أو مجمـوع النـاس الذين يمارسـون الثقافـي والاجتماعـي، والسياسـي، والتربـوي، والدينـي... الـخ. وإن موضـوع الدراسـة الإنسـانية والاجتماعيـة مرتبـط بمـا يفعلـه هـؤلاء، ومـا تؤدّيـه ذواتهـم فـي الحيـاة اليوميـة؛ إن موضـوع الدراسـة هـو الواقعـة المجتمعيـة.

وعلـى هـذا الأسـاس يكـون المجتمعـي هـو الموضـوع فـي العلـوم الإنسـانية والاجتماعيـة، وهو يحمـل الذاتـي؛ ذاتانيات الفاعليـن الاجتماعيين، والباحثيـن والعلمـاء. وهـذه الـذوات تتأثّـر وتؤثّـر، وفـي عمليـات التأثّـر هـذه ومـن خلالهـا تـدور الحيـاة اليوميـة، ويصبـح لزامـاً، فـرض الأوضـاع والأدوار الاجتماعيـة للأفـراد والجماعـات.

هـل نسـتطيع الآن أن ندّعـي الموضوعيـة فـي العلـوم الإنسـانية والاجتماعيـة؟ وهـل نسـتطيع أن نوافـق أنصـار الاتجـاه الموضوعـي علـى تصوراتهـم؟ حـول النظريـة الأساسـية المتعلقـة بالموضـوع، بأنـه الشـيء الخارجـي الـذي تقـع حواسـنا عليـه.

أم أننا ينبغي أن نذهب إلى ما يقوله أصحاب الاتجاه الذاتي، أو الذاتانية، (Subjectivisme)، وأنصاره، بأنَّ الموضوع هو ما تؤلفه التجربة الحية والخبرة الذاتية. وبالتالي فإن الموضوع هو ما بداخله وليس خارجه.

إن المعطيات التي تشكّل الظواهر الاجتماعية داخل المجتمع، تحمل الظاهر وغير الظاهر، وبالتالي فهي نتاج فعل الفاعلين الاجتماعيين وذواتهم، في ظاهرها وباطنها. ومهما يكن من أمر فإن الموضوع سواء تعلَّق بما هو خارجي أو بما هو غير خارجي، فهو متعلق بذوات الفاعلين الاجتماعيين، وعندما يبدأ الباحث عمليات البحث، وتجميع المعطيات، كذلك الأمر، فإن ما هو خارجي أو غير خارجي، سيكون لذات الباحث حضور فيه.

هناك خصوصية إنسانية للموضوع في العلوم الإنسانية والاجتماعية وبالتالي للظاهرة الاجتماعية، خصوصية إنسانية تختلف عن الخصوصية المتعلقة بالظواهر في العلوم الطبيعية، وهذا ما يستدعي الاختلاف الحتمي في دراسة كل من النوعين من الظواهر كما أشرنا سابقاً.

إن هذا الاختلاف يستدعي البحث في اختلاف المناهج والأساليب والطرائق البحثية، أو إدخال تعديلات جذرية تتلاءم

والظواهـر الاجتماعيـة، وبذلـك نقـدم أجوبـة إضافيـة حـول علميـة علـم الاجتمـاع والعلـوم الإنسـانية.

لقـد بـات لدينـا فهـم حـول الموضوعيـة والذاتيـة، كيـف يمكـن علـى هـذا الأسـاس اختيـار موضـوع البحـث؟

هل ستلعب الموضوعية دوراً في ذلك؟

أم أنَّ الذاتية هي ما سيساعد على اختيار الموضوع؟

هنـا، النظـرة إلـى الموضـوع مرتبطـة بالوقائـع التـي تقـدّم نفسـها لنـا وتثيـر فضولنـا واهتمامنـا، لتدفعنـا نحـو الاختيـار، وبالتالـي يتقـدّم الفضـول الذاتـي علـى الموضـوع، فيمـا تتقـدم الوقائـع لتثيـر الفضـول الذاتـي، وهـذا مـا يعنـي أنَّ اختيـار الموضـوع بموضوعيـة بعيـداً عـن تدخـل الذاتـي، هـو ضـرب مـن ضـروب الخيـال، إذ إن الباحـث الـذي يختـار موضـوع بحثـه، يدفعـه الفضـول الذاتـي لهـذا الاختيـار، بعدمـا ضغطـت المؤثـرات والوقائـع والمعطيـات علـى هـذا الفضـول وأثارتـه. فتدخـل الـذات فـي عمليـة الاختيـار والقبـول للموضـوع واقعـة لا محالـة.

إن كلامنـا هـذا لا يعنـي بحـال مـن الأحـوال الانتمـاء إلـى البنيويـة (Structuralisme) التـي حـاول أصحابهـا التوفيـق بيـن الاتجاهيـن «الموضوعانيـة، والذاتانيـة». ففـي كتابـه «أشـياء مقُولـة» «choses dites» قـال بيـار بورديـو «عالـم الاجتمـاع»: «بشـكل عـام يتحصـل

التجـاذب داخـل علـوم الأنتروبولوجيـا، والتاريـخ، وعلـم الاجتمـاع، بيـن وجهتـي نظـر يسـتحيل للوهلـة الأولـى الجمـع بينهمـا وبيـن نظريتيـن تقعـان، للوهلـة الأولـى، علـى طرفـي نقيـض: الموضوعانيـة والذاتانيـة...»(١).

وقـدّم نزعـة توفيقيـة بيـن النظريتيـن، كانـت هـذه النزعـة أكثـر وضوحـاً فـي كتابـه الآخـر «إجابـات» (Réponses) مـن أجـل أمنيـات انعكاسـية (١٩٩٢)، قـال فيـه: «... يوجـد تطابـق وتناغـم وانسـجام بيـن البنـى المجتمعيـة والبنـى الذهنيـة، بيـن انقسـامات العالـم المجتمعـي الموضوعيـة وبيـن المبـادئ التـي يمارسـها الفاعلـون فـي نظرتهـم»(٢).

وكذلـك يفعـل كلـود ليفي سـتراوس فـي كتابـه الشـهير «الأنتروبولوجيا البنيوية».

إن مـا نذهـب إليـه هنـا هـو نـزع الاسـتئثار بالحقيقـة مـن قبـل كل مـن النظريتيـن، والنظـر بواقعيـة إلـى المسـائل والأمـور، بعيـداً عـن مبـدأ التـكاذب الـذي تخـادع مـن خلالـه المـدارس فـي العلـوم الإنسـانية والاجتماعيـة. إن الواقـع الـذي يقـدم المعطيـات، ينتـج مـن خـلال الفاعليـن وذواتهـم، وهنـا تشـارك بيـن الواقعـي والذاتـي، ينتـج الموضـوع، ويـؤدي إلـى تحديـده واختيـاره.

---

(١) Pierre bourdieu, Choses dites, Minuit, 1987, P. 49.

(٢) Pierre bourdieu Rèponses, SEUIL, Paris, 1992, P. 18.

هنا كسر للشائع، ونظرة إلى البحث العلمي بواقعية، تنطلق من فهم العلاقة بين الواقع والذات، وإنتاج المعطيات التي تتيح إنتاج أو جعل الباحث قادراً على تحديد موضوعه وبنائه. وهنا أيضاً ربط للواقع بهوية أبناء الواقع أو الذين ينتجون هذا الواقع بتفاصيله. هنا تبدأ عمليات التحوّل في أساليب البحث ومراحله، ولا تعود محكومة بضرورات الموضوعية التي ينادي بها كثير من العلماء والباحثين.

ثم إن كلامنا هذا، وإن رُبط الواقع بالذين ينتجونه وبهويتهم الثقافية والاجتماعية والسياسية... الخ، إلّا أنه لا يغفل عن مبدأ وحدة الجنس البشري، والقيم الإنسانية المشتركة والوجود الإنساني بأصله. إن الفعل الاجتماعي داخل المجتمعي ينتمي إلى الثقافي والديني والسياسي... الخ، لكنه لا يحدث انفصاماً لمجموعة من الناس عن مبدأ وحدة الجنس البشري وأصل وجوده وقيمه. إننا نحرص على تأكيد هذا الربط والوحدوية البشرية في ظلّ تنوع في الهوية الاجتماعية. بمعنى أنَّ الإنسان يأخذ مشروعيته الإنسانية من خلال هويته الإنسانية الجامعة وليس من خلال الهوية الاجتماعية والثقافية... الخ.

ب ـ الفرضية في البحث العلمي

معنـى الفرضيـة: الفـرض فـي اللغـة عبـارة عـن التقديـر والقطـع والبيـان، والفـرض قطـع الشـيء بقطـع الحكـم، وفـرض الخيـاط الثـوب قطعـه والفـرض لغـة الوجـوب.

والفـرض الذهنـي هـو الـذي لا يطابـق الواقـع ولا يعتـدّ بـه أصـلاً[1]. وفرَضـتُ الشـيء أفرِضـهُ فَرَضـاً وفرضتـه للتكثيـر: أوجبتـه، وفـي القـرآن الكريـم «وفرضناهـا» فمـن يقـرأ بالتخفيـف فمعنـاه ألزمناكـم العمـل بمـا فـرض فيهـا، ومـن قـرأ بالتشـديد فعلـى وجهيـن: أحدهمـا علـى معنـى التكثيـر إنـا فرضنـا فيهـا فروضـاً، وعلـى معنـى بيّنـا وفصّلنـا مـا فيهـا مـن الحـلال والحـرام والحـدود،... وأصـل الفـرض القطـع، والفـرض والواجـب سـيان،... وقيـل الفـرض هـا هنـا بمعنـى

(١) الحسيني، أيوب بن موسى (أبو البقاء) - الكليات، معجم في المصطلحات والفروق م. س ص ٥٧٩.

التقديـر[1]. والفـرض فكـرة يؤخـذ بهـا فـي البرهنـة علـى قضيـة أو حـلّ مسـألة.

والفـرض مصـدر بمعنـى المفعـول، وتقـال علـى كلّ فكـرة أو موضـوع أو قضيـة شـرطية، بحاجـة إلـى تحقّـق نظـري أو ميدانـي أو برهـان.

ذهـب البعـض مـن الباحثيـن إلـى أنَّ أصـل الكلمـة فـي الإنكليزيـة Hypothesis، وأنهـا مكونـة مـن مقطعيـن Hypo ومعنـاه: دون الشـيء أو «شـيء أقـل مـن»، الصحيـح أنَّ كلمـة Hypo فـي العـادة عنـد الإنكليـز لا تأتـي وحدهـا بـل هـي مكمّلـة أو أنهـا جـزء مكمّـل للـكلام بمعنـى «دون الشـيء» أو «أقـلّ مـن». مثـلاً إذا قلـت Hypoglycemia يعنـي معـدلاً منخفضاً وهكـذا، أمـا Hypothesis فهـي كلمـة واحـدة وتعنـي الفرضيـة أي الفـرض مـن قبـل الأطروحـة، أو مـا دون الأطروحـة. أمـا thesis وحدهـا فهـي تعنـي فكـرة، اقتراحـاً، فرضيـة، وجوابـاً افتراضيـاً، مبدئيـاً، مقترحـاً موقتـاً، أو الأطروحـة.

تمثّـل الفرضيـة فـي البحـث العلمـي فـي العلـوم الإنسـانية والاجتماعيـة، الصـورة الاجتماعيـة التـي يقدمهـا الباحـث أو القانـون

(١) أبو الفضل جمال الدين محمّد بن مكرم (ابن منظور)، لسان العرب، دار صادر، بيروت، بيروت ٢٠٠٣، باب حرف الفاء، مسألة الجزء الحادي عشر.

العام الذي يقدّمه عن الظاهرة، وفيه يحدد العلاقة التي يراها قائمة بين المتغيّرات في الظاهرة، وعن طريق هذا الافتراض يحدد الباحث الوجهة التي يأخذها البحث.

كيف يحصل الباحث على فرضيته؟ ومن أين يأتي بها؟

لنبدأ بالسؤال الثاني: يأتي الباحث بفرضيته من الظاهرة التي يعاين؛ فمن خلال المشاهدة والاستقراء، يضع مقدّمات ونتائج يقصدها قصداً (الفروض). وضع هذه الفروض هو نوع من التقرير أو من الاستدلال المنطقي في صورة تجريبية، يقوم على جدلية حسابية معقدة تسمى حساب الاحتمالات. هذا الاستدلال هو في حقيقته استنباط، يتدرج من العام إلى ما هو أقل إلى الوقائع، ويلعب دوره في صوغ الفرضيات. وبهذا، فإن استنباط الفروض هو عملية لاحقة للمشاهدة والاستقراء من وجهتين: الأولى، لاحق بالنسبة إلى الحدس الحسي، إذ لا بد من معرفة العلاقة التي يراها الباحث بين الظواهر في المحسوس. والثانية أنَّ الاستنباط يأتي بعد الترتيب المنطقي للاستقراء، أي للمعرفة التي تتجّه من الجزء إلى الكل.

عندما يتحدث أي باحث عن التجريب الذي ينطلق فيه من الفرضية، ينبغي أن يلتفت إلى أنَّ أساس ما انطلق منه هو الاسنتباط في صوغ الفرضية، ذلك لأنَّ الاستنباط هو العملية الطبيعية

للتفكير الذي ينتج المعرفة. هنا، واقعة الفرضية ترتبط بالاستدلال الاستقرائي، أو «الاستنباط الاستقرائي»، أي الانتقال من الجزئيات التي وقع الباحث عليها ووضعها في نظام عقلاني متناسق إلى «قانون عام» يحاول الباحث من خلاله أن يقرّب المعطى الواقعي من نموذج من الروابط يكون قابلاً للاحتساب، هذا التقريب هو نوع من الحوار الذي يجري بين النظام المفترض أو المفروض والواقع بما هو، والانتقال الذي يتم من الجزئيات إلى القانون العام أو النظام العقلاني المتناسق، هو استنباط يقوم به الباحث، مستنداً إلى الاستقراء بصورة أساسية؛ إنها عملية توليد وبناء وتكوين لفرض ما.

هكذا يبدأ الباحث عملية ابتكار عالم ممكن، أو ابتكار جزء من عالم ممكن، بغية مواجهته من خلال التجريب في العالم الخارجي، إنها مقابلة الوقائع المحسوسة، بالوقائع المفترضة، مقابلة النظام المفترض بالعالم الواقعي. إنه حوار بين المخيّلة والواقع، يؤدّي إلى الابتكار، هذا الابتكار هو الفرضية.

علمياً، الفرضيّة هي ما يتخيله الباحث حلاً لمعضلة ما. فهو عندما يقابل الواقعي بغير الواقعي، التخيلي بالواقعي، يخلق ويولد في ذهنه منظومة فكريّة يحاول أن يحيلها إلى واقع، يعتبرها الواقع بعينه. هكذا تجدنا مرة أخرى أمام سؤال يتمحور حول الموضوعية، كيف نفهمها؟ وكيف صاغها الغرب؟ وماذا أراد منها؟ إن أياً من

الإجابـات عــن هــذه الأسـئلة قــد يوضـح وجهـاً وقـد يغفـل عــن أوجـه لحقيقــة الموضوعيــة ومعناهــا.

إجرائيــاً، يصــور الباحــث العالــم تصــوّرات ذهنيــة أو نظريــة، عــن طبيعـة العلاقـات بيـن المتغيـرات، هـذه التصـوّرات هـي مـا يمكـن أن يعبّـر عنـه بالفـروض، فالفـرض عبـارة عـن علاقـة نظريـة بيـن متغيّريـن. إن تحديـد المتغيـرات الرئيسـة، ومـن ثـم تحديـد العلاقـات بينهـا فـي شـكل فـروض، تتـم عـادة بمقتضيـات إطـار نظـري[١].

قــد يعــدّ الباحــث فروضــاً رئيســية ثــم فروضــاً بديلــة، وفــي كثيــر مـن الأحيـان يقبـل الباحـث بالفـرض البديـل بعـد فشـل الفـرض الرئيسـي، الفــروض البديلــة عــادة يأتــي بهــا الباحــث مــن إشــارات فــي البحــوث الســابقة أو مــن التفســيرات النظريــة التــي تــم تطويرهــا.

صلاحية الفرضية في البحث في العلوم الاجتماعية والإنساني

مــا عرفنــاه عــن الفرضيــة أنهــا الصــورة الاحتماليــة التــي يقدمهــا الباحــث، أو أنهــا القانــون العــام الــذي يقدمــه عــن الظاهــرة، وأنَّ وضعهــا هــو نــوع مــن الاســتدلال بصــورة تجريبيــة، وهــو وضــع نظــام عقلانــي متناســق يحــاول الباحــث مــن خلالــه أن يقــرب المعطــى الواقعــي مــن

---

(١) التير د. مصطفى عمر، مساهمات في أسس البحث الاجتماعي، معهد الإنماء العربي، بيروت ١٩٨٩، ص ٣٢.

نمـوذج مـن الروابـط يكـون قابـلاً للاحتسـاب. فهـل تصلـح الفرضيـة كمـا هـي للاسـتخدام فـي البحـث فـي العلـوم الإنسـانية والاجتماعيـة؟ الجـواب عـن هـذا السـؤال يأتـي مـن جـواب عـن سـؤال آخـر، مـن أيـن يبـدأ الباحـث الـذي يعتمـد الفرضيـة، فـي بحثـه؟ إنـه يبـدأ مـن الفـرض وليـس مـن الواقع، أي إن الباحـث ينطلـق مـن الصياغـة النظريـة التـي وضعهـا، ليبحـث فـي مـا إذا كانـت مقبولـة أم لا، يذهـب فـي بحثـه إلـى البرهنـة، وهـذا مـا يعكـس حالـة الفهـم لـدى الباحـث، ولا يعكـس حركـة الفهـم لديـه، فمـا هـو هـذا البحـث؟ إنـه ليـس بحثـاً فـي واقعـة أو ظاهـرة، إنـه بحـث فـي وجهـة نظـر، فـي رؤيـة وحكـم وفـروض مقصودة،هـذا هـو الجـواب، إن الفرضيـة في هذه الحـال لا تصلـح فـي العلـوم الإنسـانية والاجتماعيـة التـي تـدرس الظواهـر والوقائـع، إضافـة إلـى ذلـك، صـوغ الفرضيـة يحتـاج إلـى عمليـة تنظيـم الوقائـع المبعثـرة بنظـام متكامـل، أي إن الباحـث يفتـرض جمـود الظاهـرة فـي هـذه الحـال، أو بـكلام أدق، يعمـد الباحـث إلـى افتـراض أنـه يسـتطيع تجميـد الظاهـرة فـي لحظـة معينـة ولملمـة وقائعهـا المبعثـرة ووضعهـا فـي قالـب أو نظـام دقيـق ومتناسـق، وفـي وضـع كهـذا، فـإن الخطـأ الجسـيم الـذي يكـون قـد وقـع فيـه الباحـث، هـو عـدم وعيـه للحركيـة الدائمـة التـي تتميـز بهـا الظاهـرة ووقائعهـا. عندمـا يخطـو الباحـث هـذه الخطـوة، ويضـع

فرضيته، يستدعي هذا الأمر التجربة. هو يضعها استدلالياً، من خلال المشاهدة، وينتقل لدراستها تجريبياً.

إن ما يحدث هنا هو خلط بين البحث في المعطى الواقعي والبحث في الإطار النظري، هذه المسألة يمكن لها أن تكون صحيحة في العلوم الطبيعية، التي تتميّز وقائعها بنسبة عالية من الثبات، كذلك فإن حركية هذه الوقائع بطيئة جداً لدرجة أنها تكاد تكون ثابتة. أما في العلوم الإنسانية والاجتماعية، فإن الأمر مختلف، وهذه الثنائية بين المعطى الواقعي، والإطار النظري، يتيح فهمها إمكانية الاستنباط والاستدلال والانطلاق في البحث على أساس دراسة حركية الوقائع وليس الحكم عليها.

السؤال الآخر، ما الذي يطاله البحث؟ حين ننطلق به؟

لا بد من القول بأنَّ البحث يطال الوقائع وليس إطاراً جامداً يتلقاها، وهذا الأمر يستدعي حواراً بين التساؤلات التي انبثقت من الإشكالية وبين الوقائع، حواراً داخل حبكة الفهم ومن خلالها، يؤمن الاستيضاح والتوضيح للكثير من الأمور، فما حاجة الباحث إلى الفرضية إذاً؟

إنها الضرورة التي انطلق منها علم الاجتماع، وانطلقت منها العلوم الإنسانية، إنها الضرورة التي انطلق منها هذا النظام الفكري أو النظام العلمي الموضوعي، والذي كانت انطلاقته

وكذلك حركته، لاتزالان نوعاً من التقليد والمحاكاة لأساليب العلوم البحتة، إنها الضرورة التي حكمت المواجهة بين العلم الإنساني والوعي الإنساني، والتي أوجدت العلاقة الثنائية، (باحث وموضوع)، ويتطلب ذلك إلغاء الوعي الإنساني، لأنَّ هذا الوعي كان ولا يزال يعتبر من ترسبات الفكر الديني.

لقد جعلت هذه الضرورة الوجود الإنساني جزءاً من الوجود الطبيعي العام ليصبح الإنسان نفسه موضوعاً للعلم. ولكي يدرس العلم هذا الإنسان، وفق إطار معين، ينبغي أن يحدث انفصام بين الوعي وغير الوعي. ارتكز هذا الأمر على نظرية تقول بأنَّ الإنساني لا ينكشف للإنسان بل ينكشف للعلم، وبقدر ما يمثل الإنسان عقلانية العلم، يكتشف الكامن وراء الوعي، أي ما يمثل فعلاً الحقيقة، الحقيقة التي تنتزع من وراء الوعي، هذا الانتزاع يقوم به أناس مختصون. السؤال هنا من هم هؤلاء المختصون، هل هم علماء أم أنهم منجمون؟... إنها عملية اكتشاف للحقيقة المغايرة للإنساني. إنّ ذلك ينطبق على ميدان العلوم البحتة، فلماذا يطبق في ميدان العلوم الإنسانية والاجتماعية؟

إذا كان سرّ الإنساني لا يكمن في الوعي مثلما يقول ليفي ستراوس، بل في الدماغ كمعطى فيزيولوجي، وظيفي، فمن أين جاء ستراوس بهذه المعرفة؟ هل أتى بها من هذا المعطى الفيزيولوجي؟

وإذا كان هـذا المعطـى متشـابهاً وظيفيـاً بيـن كل النـاس، لمـاذا لـم يعـرف كل النـاس مـا عرفـه سـتراوس؟

يقـول أصحـاب التمسّـك بالفرضيـة فـي العلـوم الإنسـانية والاجتماعية، بالانتقـال مـن الإشـكالية إلـى الفرضيـة، هـذا الانتقـال يمثّـل انتقـالاً مـن المفاهيـم النظريـة إلـى المفاهيـم الإجرائيـة، نلفـت انتباههـم هنـا إلـى أنَّ الإشـكالية نتجـت مـن إشـكال فـي الفهـم، فكانـت رؤيـة الباحـث لمـا فهمـه، وإبـرازه لمـا لـم يفهـم أو لمـا أشـكل عليـه فهمـه، إنهـا حبكـة نظريـة، تحمـل مفاهيـم نظريـة. نعـم؛ الفرضيـة ناجمـة عـن عمليـة اسـتدلالية، إنهـا تصريـح يقدّمـه الباحـث ويحـدد فيـه مسـبقاً العلاقـة التـي يراهـا قائمـة بين الظواهـر فـي المحسـوس، إنّهـا كذلـك اسـتدلال نظـري، كيـف يكـون بذلـك الانتقـال مـن الإشـكالية إلـى الفرضيـة انتقـالاً مـن النظـري إلـى الإجرائـي؟ إنـه بـلا شـك انتقـال مـن النظـري المحتـاج إلـى تفسـير وتوضيـح وتحليـل، إلـى النظـري المحتـاج إلـى برهنـة. إنهـا عمليـة عكسـية. الأول يُعنـى بالظواهـر فـي الميـدان الإنسـاني والثانـي يُعنـى بالظواهـر فـي الميـدان الطبيعـي، فلمـاذا الخلـط إذاً؟

لنعـد إلـى صياغـة الفـروض. مـرة أخـرى، يعـدّ الباحـث فروضـاً رئيسـة ثـم فروضـاً بديلـة، وقـد يقابـل كلّ فـرض رئيسـي بفـرض بديـل

أو أكثر؛ وعادة يقبل الباحث الفرض البديل بعد أن يفشل في قبول الفرض الأصلي.

هذا ما سبق أن قلناه وأشرنا إليه، ووجدنا أيضاً أنَّ الباحث، يعد الفروض البديلة من إشارات وجدها في البحوث السابقة أو من التفسيرات النظرية التي تمّ تطويرها، بهذا يريد البحث أن يبرهن، يدحض أو ينقض أو يؤيد ما سبق أن جرى البحث به وبرهنته، (لأنه اكتشف بعد تحليل بياناته التي جمعها أنها لا تؤيد الفرض الرئيسي الذي وضعه، فآثر وقبِل الفرض البديل)، في هذه الحال فما الذي يجري؟ إن ما يجري هو تكريس لمواقف مسبقة مضمرة، تحركها الفكرويات والمرجعيات، وتغلف بشكليات التلفيق العلمي وذرائع التأكيد أو الرفض المعقدة. إنه إقفال للباب أمام عمليات الإبداع والإنتاج العلمي الجديد، إنه فرض الأمر على الباحثين وطلاب البحث العلمي، وسوقهم في اتجاهات محددة فكرياً وعملياً، إذ يضطر الباحث للاستسلام العلمي، وهذا انقضاض على الوعي والقدرات والإمكانات المعرفية والفكرية وسجن لها في إطار الوظيفة الفيزيولوجية للدماغ.

إن الباحث لا يحتاج في عدته إلى أكثر من الإشكالية الواضحة، وحسن طرح الأسئلة، والتساؤلات الناجمة عنها، ويكون لحقل البحث الإجابة.

في خلاصة القول، تمثّل الفرضية حُكماً مسبقاً، إسقاطاً أي جواباً مسبقاً، احتمالاً مسبقاً، نظاماً عاماً... الخ. إنّها نتيجة كانت جيدة يوماً في العلم، وأصبحت بالية في التاريخ، إنّها لا تصلح في العلوم الإنسانية والاجتماعية. (وهذه وجهة نظر).

ج- الإشكالية في البحث العلمي

الإشـــكالية أو المســـألية: مســـاءلة - تمشـــكُّل ،Problématique ،Problematic وهـــي مـــن المســـألة Probleme.

تــدل المســألة علــى قضيــة نظريــة قائمــة أمامنــا، يتعيّــن حلّهــا بطرائــق الاســتدلال والحســابات المحــددة: رياضيــة، فيزيائيــة... الــخ. وهــي معضلــة يصعــب حلهــا. وتثيــر مــن حولهــا الجــدل والنقــاش. وهــي قضيــة، وصعوبــة، منهــا تشــتق المســألية أو الإشــكالية. والمســاءلة والتمشــكل، أو الإشــكال وهــو صــورة الشــيء المخصوصــة والمتوهَّمــة، هــو الالتبــاس الــذي يلحــق بالشــيء أو الموضــوع أو الظاهــرة. وهــو عمليــة صــوغ المســأليات (الإشــكاليات) فــي نســق مفهومــي متماســك علميــاً أو فلســفياً، ويعنــي التمشــكل التفمهــم، والاشــتباه فــي أمــر مــا.

«إشــكال» مصــدر «أشــكل»، أي التبــس، «أشــكل إشــكالاً»، «وأشــكل» الشــيء اختلــط فيــه، واختلــط الفهــم فيــه وعليــه، و«الإشــكال» مصــدر يعنــي الالتبــاس والغمــوض، «وإشــكالي» صفــة تعنــي معضــلاً وملتبســاً. والإشــكالية لا تخــرج عــن هــذه المعانــي.

يخلـط بعـض الباحثيـن بيـن «الإشـكالية» و«المشـكلة»، «المشـكلة» هـي شـعور بالصعوبـات، وإحسـاس بهـا، هـي عقبـة لا بـدّ مـن تخطيهـا وتجاوزهـا للوصـول إلـى هـدف مـا، وقـد تكـون اصطدامـاً بواقـع لا نريـده، بمعنـى أننـا نهـدف إلـى شـيء أو نريـد شـيئاً ونجـد خلافـه، وهـي فـي كلّ الأحـوال تعنـي الأمـر الصعـب كثيـر الالتبـاس، المحتـاج إلـى حـلّ، الجـواب أو الحـل الـذي يعطـى للمشـكلة يسـتوجب أن يكـون مقنعـاً، وكثيـراً مـا نجـد صعوبـة فـي إيجـاد حـلّ علمـي لهـا.

فيمـا «الإشـكالية» تـدلّ علـى جملـة مـن المسـائل التـي يقدّمهـا علـمٌ فـي سـياق فكـرويّ معيّـن. إنهـا قضيـة عامـة تثيـر نتائجهـا الشـكوك، ويمكـن إيجـاد حـل علمـي لهـا.

اشـتقت «الإشـكالية» فـي العلـوم الإنسـانية والاجتماعيـة، لتوحـي بمقارنـة نظريـة يتبناهـا الباحـث فـي دراسـته، ويمكـن لهـا أن تكـون منفتحة علـى قـدر مـا تتبـدل وتتغيـر معطيـات المعرفـة، ومقومـات العلـم[1].

مـن خـلال هـذه المقاربـة يطـرح الباحـث جملـة مـن الأسـئلة والتسـاؤلات، والتصـوّرات.

ويمكـن القـول بـأنَّ الإشـكالية هـي كيفيـة مسـاءلة الظاهـرة المدروسـة.

---

(١) أنظر: خليل، خليل أحمد، مفاتيح العلوم الإنسانية، ص ٣٨٨. م. س.

هـي معضلـة تحمـل الالتبـاس والغمـوض والتوهـم. وتسـتدعي المسـاءلة. هنـا معنـى الإشـكالية. إنّهـا التبـاس يسـتدعي المسـاءلة، أي يسـتدعي البحـث عـن المعرفـة، إنهـا إثـارة القلـق لـدى الإنسـان، وإثـارة الحيـرة والتوتـر، وهـي التـي تدفعـه للبحـث. إنهـا علامـة اسـتفهام وتعجـب معـاً أو دليـل علـى اشـتغال الفهـم والتفكـر.

يترابـط واقـع تحديـد إشـكالية مـا، مـع تعييـن موضـوع البحـث وتحديـده؛ فهـي إشـكالية الموضـوع الـذي نبحـث فيـه وعنـه وبـه، وبذلـك فـإن اختيـار الإشـكالية وتحديدهـا، مرتبـط بالعوامـل والمؤشـرات والأبعـاد والمتغيـرات والمؤشـرات التـي يعتمدهـا الباحـث، والتـي تشـكّل بدورهـا المرتكـزات الأسـاس فـي تعييـن منهـج البحـث والمحطـات والخطـوات المنهجيـة المنـوي اتباعهـا، وتحديـد تقنيـات البحـث وأدواتـه.

ـ التعرف إلى الإشكالية

إن صـوغ إشـكالية مـا، يتطلّـب وجهـة نظـر خاصـة فـي النظـر إلـى الموضـوع، ومعنـى ذلـك أنَّ التعـرّف إلـى الإشـكالية يحتـاج إلـى رؤيـة ومعرفـة، وبالتالـي فـإنّ أوّل مشـكلة تواجهنـا هنـا هـي المعرفـة الخاصـة، التـي تكـون لـدى الباحـث، كيـف يقـرأ؟ وكيـف يفهـم؟ وكيـف يحلـل ويفسّـر؟ اصطلاحيـاً، الإشـكالية هـي وجهـة النظـر والتسـاؤلات التـي

يطرحها الباحث العلمي، حول ظاهرة ما، وهي قابلة لإيجاد أجوبة لها. هذه الأجوبة تأتي بالتدرّج، وتكون جيّدة على قدر ما تكون الإشكالية والتساؤلات جيدة. وعندما لا تكون جيدة وغير جديرة وفضفاضة، وغير متحكّم فيها، تأتي الأجوبة على شاكلتها.

ينبغي أن يساعد الجواب الذي نحصل عليه (أو الأجوبة) على فهم الظاهرة أو جوانبها التي نبحث فيها أو عنها، ويساعد أيضاً على تفسيرها وتأويلها، أو أن يكون نقطة تدل على أننا عاجزون عن فهمها وتفسيرها.

ماذا يعني هذا الكلام؟ إنّه يعني أنّ على الباحث أن يتعرف إلى إشكالية بحثه من خلال فهمه للإشكالية وكشفه لوجودها بوساطة ما تجمع لديه من معطيات ومعلومات ناجمة عن الاستطلاعات والقراءات الاستكشافية.

هذا ما يميز الممارسة العلمية من الممارسة غير العلمية في البحث، وهذا ما يجعل ممارسة العلم يعي خاصية معرفية تسمح بالكشف عن وجه أو أكثر من وجوه الحقيقة أو الحقائق العلمية.

إنّ فهم الإشكالية وما تعْنيه، يضعنا أمام إمكانية كشفها والإجابة عنها بأفضل السبل، وهذا يعتمد على وعي الباحث ومعرفته، وحدود إمكانياته في إطار اشتغاله داخل حقل العلم، مثال على ذلك:

تختلف الإشكالية وطريقة تعيينها، باختلاف حقل العلم، فإذا كنا داخل حقل علم النفس مثلاً، ينطلق النظر إلى الموضوع من الجزء إلى الكل. تتمُّ متابعة فردها لمعرفة الجماعة، وبذلك فإن الإشكالية تكون موضوعة أو مبنية على أساس النظر إلى الأجزاء حتى يمكن تشكيل حدود الفهم حول الكل.

فيما يختلف الأمر داخل حقول العلوم الإنسانية الاجتماعية الأخرى، إذ ينظر إلى المشكلة أو الظاهرة وما يحدث في داخلها، أو كيف تتحرك وتتبدل وتتغير، وهذا يعني النظر من الكلّ إلى الجزء، وعليه، فإن الإشكالية في هذه الحقول العلمية، توضع بالنظر إلى الظاهرة من الكل إلى الجزء.

ثم إنّ الإشكالية ليست واحدة في حقل العلم نفسه، بمعنى أنّ كلّ ظاهرة أو كلّ موضوع له إشكالية أو أكثر، باعتبار أن ليس باحث واحد هو الذي يمكن أن يبحث به، بل إن الموضوع الواحد أو الظاهرة الواحدة، يمكن أن تدرس من قبل أكثر من باحث وفي أوقات مختلفة. وكلّ باحث له طريقته في التفكير، والفهم والميول، وكلّ مدرسة فكرية ينتمي إليها الباحثون لها وجهة نظرها وطريقتها في رؤية الأمور، وكلّ موضوع له عدة جوانب، وهذا يعني الاختلاف في البحث وطرائق المعالجة.

ـ معنى الإشكالية

غالباً ما يواجه الباحث في العلوم الإنسانية، مشكلة معنى الإشكالية. فيذهب مذاهب مختلفة في تعيين ذلك، ولهذا نجد كثيراً من الباحثين يقولون بأنَّ الإشكالية هي سؤال أو مجموعة أسئلة.

يأتي ذلك الالتباس والخلط في فهم الإشكالية من عدة أمور:

أولاً: يحصل خلط بين الإشكالية والمشكلة. فإذا كان الاعتبار أننا أمام مشكلة بحاجة إلى حلّ، فإن ذلك يجعلنا أمام سؤال عن كيفية حلّ المشكلة.

ثانياً: يحصل خلط بين الإشكالية والموضوع، إذ يظن البعض أنه بمجرد اكتشاف الموضوع فإنه حصل على الإشكالية، مثلما قد يظن أنّه اكتشف موضوعه لأنّه وجد أمامه حدثاً ما أو قرأ عن أمرٍ ما.

عندما لا يعمل الباحث على بناء موضوع بحثه، فإنّه لن يصل إلى الإشكالية الجديرة بالبحث. وعندما يبني بحثه، عليه أن يعمل لبناء إشكالية البحث.

وعندما يُقدّم للباحث أو الطالب موضوع للبحث، فهو لن يستطيع بناء الإشكالية اللازمة والجديرة بالبحث، ولهذا كلّه، يذهب البعض إلى السؤال.

ثالثاً: عدم وعي معنى الإشكالية يؤدّي إلى عدم وعي القدرة على ممارسة الإشكالية وبنائها. فنكون أمام السؤال.

إن وعـي هـذه النقـاط معرفيـاً، يسـمح بالكشـف عـن المعنـى فـي الإشـكالية وعـن معنـى الإشـكالية. فمـا هـو هـذا المعنـى؟ إنـه فـي الحقيقـة يمثـل نقطـة التقـاء بيـن الفهـم والغمـوض، إنـه الإشـكال فـي الفهـم، والالتبـاس الـذي يحيـط بفهـم الظاهـرة.

وهكـذا، عندمـا ينظـر الباحـث إلـى ظاهـرة مـا، فإنـه يجـد نفسـه أمام جملـة مـن المعطيـات التـي تكشـف لـه وجهاً مـن أوجـه الظاهـرة أو عـدة أوجـه منهـا، فيمـا تغيـب عنـه أوجـه أخـرى.

وإذا كان هنـاك باحـث آخـر، أو عـدة باحثيـن ينظـرون إلـى الظاهـرة نفسـها، فإننـا سـنكون أمـام عـدة طرائـق للفهـم والكشـف، وعـدم الفهـم والغمـوض، ولهـذا نجدنـا أمـام إشـكالية البحـث. إنهـا إشـكالية لأنهـا تعنـي أنَّ هنـاك أكثـر مـن غمـوض وأكثـر مـن التبـاس لـدى عـدد مـن الباحثيـن، إنّهـا مـا استشـكل فهمـه والتبـس.

إنّ كلّ رؤيـة لـكلّ باحـث تملـك أو ينبغـي أن تملـك مبـررات وجودها، وجدارتهـا، رغـم أنهـا يمكـن أن تتعـارض وتختلـف مـع غيرهـا فـي معظـم الأحيان.

عمومـاً، فـإن الإشـكالية تعنـي جملـة مـن المسـائل التـي تقـدم فـي سـياق فكـروي معيـن، بعـد المشـاهدة والملاحظـة للوقائـع واسـتقرائها

عملياً أو تجريبياً، وبعد القراءة الاستكشافية حولها، وكذلك فحص وقراءة النظريات والإشكاليات السابقة المتعلقة بموضوع البحث ونواحيه.

- صياغة الإشكالية

يرتكز اختيار الباحث للإشكالية على اعتبار أنها أهم مراحل تعميم البحث العلمي، وتشكل مرحلة مفصلية في المسار المنهجي للبحث. إنها تلخص وتقدم الإطار المنهجي والتوجيهي للحل، وتعطي الموضوع الحدود اللازمة، وتناقش جوانبه الرئيسة.

يتم بناء الإشكالية وصياغتها أساساً على ضوء ما يتم الاطلاع عليه في مجال الموضوع المعني في البحث، مثلما ورد سابقاً؛ من خلال:

١- تجميع معلومات بوساطة تقنيات مثل الملاحظة والمقابلة، وتلك عمليات استكشافية أولية.

٢- يستفيد الباحث من المعلومات والمعطيات التي يحصل عليها من المراجع والأبحاث والكتابات المتعلقة بالبحث أو التي تقارب موضوعه بطريقة ما.

٣- يستفيد الباحث من الإشكاليات التي وضعت سابقاً إلى جانب وجهات النظر حول الموضوع.

٤ـ يعمل الباحث على تطوير وتوضيح المعلومات المستقاة من الأبحاث والمراجع.

٥ـ يذهب البعض إلى أنَّ الحدس العلمي يلعب دوراً يختصر الخطوات الشكلية أحياناً، لدى العالم المزود بقدرة عالية على التجريد.

في المحصلة، إن ما عرفناه عن الإشكالية حتى الآن، يفيد أنها تعكس حالة الالتباس في الفهم لدى الباحث، وبالتالي، فإنها تدفع باتجاه تحريك عمليات التفكير للبحث عن المعرفة والفهم، إنها وبكل بساطة تعكس حركة الفهم.

ما الذي نعنيه بهذا القول، إنها تعكس حركة الفهم؟

إنّها تدفع نحو البحث عن فهم حركة العلاقات والتطورات التي تُحدث تبدّلاً وتغيّراً داخل الظاهرة، وكيف تؤثر وتتأثر، وكذلك بين أبعاد المفاهيم ومكوّناتها وعناصرها، وهذا يعني أننا أمام مقاربة الموضوع من خلال محاولة الفهم بين ما هو محسوس وما هو غير محسوس، ما هو متحرك وما هو محمول، وما يربط بينهما هو الحكم، هذا الحكم هو بحاجة إلى إثبات، أي إلى تعليل، هذا التعليل لا يحصل إلّا بالاستناد إلى قاعدة علمية أو منهجية علمية. هنا لا يصبح هذا الحكم معللاً إلا من خلال العمليات البحثية، وبالتالي يبقى إشكالاً إلى أن يصبح حكماً.

في هذا الإطار نفهم بعمق وبصورة أوضح حقيقة الجهد العلمي وأساليب البحث العلمي، بمعنى ما أن يبدأ الباحث بالجهد لبناء موضوعه، فإنه يعمل على مقاربة هذا الموضوع بعد أن يحصل على المعلومات اللازمة، هذه المعلومات أوجدت إشكالاً في الفهم لديه، يمتاز هذا الإشكال بفهم أوجه وعدم فهم أوجه أخرى، تدفعه إلى مقاربة الموضوع على أساس هذا الإشكال.

هكذا فإن المعلومات التي أوجدت الإشكال تدخل في أساس تشكُّل الظاهرة أو صيرورتها وتطوّرها، ومنها أو معها يتشكل نظام يسيّر الظاهرة، هذا النظام قابل للتعديل ويمكن تعديله فيما بعد.

إن ما يظهر لنا وما نعلمه عن الظاهرة مما انكشف أمامنا لا يمثّل الظاهرة ولا يفسّرها، بل إن هناك ما لم ينكشف ولم يظهر وكذلك هناك ما ظهر ولم نفهمه، لذلك كان البحث، وهذا ما يدعو إلى صياغة إشكالية البحث، إنّه الالتباس الذي أدى بنا إلى التساؤل، إنّه يقيّم العلاقة بين ما هو معلوم من الظاهرة وما هو غير معلوم.

المعطيات التي جمعناها تعكس صورة عن وضعية للظاهرة، لكنها لا تعكس كلّ صورة الظاهرة وتظهر جوانب من العلاقات والحراك الاجتماعي والأدوار والروابط. ذلك لا يُقدّم الظاهرة بوضعيتها الكاملة. الفكرة التي نتعرّض لها هنا، هي أنَّ الباحث يبدأ بتكوين فكرة أولية حول الظاهرة، من خلال المعطيات المحسوسة

التـي توصـل إليهـا، لكنـه لـن يتمكـن مـن الإحاطـة بالظاهـرة إلّا بعـد أن يحصـل علـى إجابـات لمـا هـو غامـض وغيـر مكشـوف وغيـر مفهـوم بالنسـبة إليـه، وهـذا مـا يجعلـه بحاجـة إلـى صياغـة إشـكاليته التـي تحـدّد لـه نقاطـاً ملتبسـة وغامضـة أشـكل فهمهـا. وهـذا مـا يناقـض أقـوال بعضهـم بـأنَّ المعطيـات المبعثـرة تقـدّم نفسـها أمـراً بديهيـاً، إنّهـا لا تقـدم نفسـها، إنـه يبحـث عنهـا، مـا التقطـه أولاً، كان بفعـل ملاحظتـه، وانتباهـه، لأنَّ هـذه المعطيـات عينهـا قـد لا تكـون محـطّ اهتمـام آخريـن غيـره. فـي هـذه الحـال يعنـي أنَّ إرادة الباحـث ودقـة ملاحظتـه هـي التـي التقطـت المعطيـات الأوليـة، وهـي التـي جعلتـه يسـعى إلـى التقـاط المزيـد منهـا ويقـرر البحـث فيهـا وعمـا التبـس عليـه وأشـكل، وأن يضـع الأسـئلة والتسـاؤلات حـول مـا يريـد أن يعـرف ويعلـم، لتكـون لديـه صـورة مـا عـن الظاهـرة.

ليـس الأمـر هنـا ظاهريـاً، إنـه فعلـي ومعبّـر، ثـم إنّ للغـة دوراً قويـاً فـي هـذا الفعـل، إذ إن قـول الباحـث لـم أفهـم أو أريـد أن أفهـم أو لمـاذا أو كيـف... الـخ تـؤدّي بـه إلـى ممارسـة فعـل البحـث، والعمـل علـى إنجـازه. وهـذا تعبيـر عـن الوعـي الـذي ينبغـي أن يتميّـز بـه الباحـث، وتعبيـر عـن قدرتـه علـى الفعـل والبحـث.

تشـترك المعطيـات التـي قـام الباحـث بجمعهـا ومـا حصـل عليـه مـن خـلال المراجـع والأبحـاث فـي إيجـاد تسـاؤلات لديـه وفـي تمثـل

دلالات متعــددة، إنهــا تملــك قــوة الإيحــاء وخصوبــة إنتــاج التســاؤلات، حينئــذ يصــار إلــى تبلــور فكــرة وصياغــة إشــكالية، يذهــب الباحــث فــي بحثــه للإجابــة عنهــا وعــن تســاؤلاتها وكشــف مــا هــو غامــض فيهــا.

بعــض الباحثيــن يذهــب إلــى أنَّ الإشــكالية غيــر كافيــة فــي البحــث العلمــي فــي العلــوم الإنســانية والاجتماعيــة، مــن أجــل البحــث، بــل إن هنــاك أســئلة يجــب الإجابــة عنهــا، تتعلــق بالمكونــات والعناصــر والأبعــاد والعلاقــة فيمــا بينهــا داخــل العلــوم، قبــل النــزول إلــى الحقــل لتحديــد كيــف يــدرس الموضــوع.

بمعنــى أن نوجــد نظامــاً متكامــلاً مــن العلاقــات بيــن المتغيــرات والمعطيــات مســتنداً إلــى قواعــد بســيطة ذات علــة كافيــة، تكســبه صفــة التناســق والتكامــل والبديهيــة، ليكــون قــادراً ليــس فقــط علــى تفســير ذاتــه، بــل علــى تفســير غيــره مــن النظــم، وبــكلام أدق إدخــال مــا يبــدو مبعثــراً مــن المعطيــات والمتغيــرات فــي نظــم محســوبة، تحتــاج إلــى التعليــل والإثبــات، أو الإنــكار؛ إنهــا ضــرورات الموضوعيــة، وهنــا يكمــن معنــى الفرضيــة.

يصعــب التســليم بذلــك، عندمــا نكــون أمــام ظاهــرة إنســانية، تحمــل الكثيــر مــن المعطيــات والعلاقــات والروابــط والحــراك. إن الشــيء المهــم هنــا، هــو أنَّ مــا لــم يتمكّــن الباحــث مــن فهمــه وكشــفه فــي العمليــات الاستكشــافية يدفعــه إلــى البحــث، هــذا الأمــر هــو فــي مقابــل

أشياء ومعطيات انكشفت لكنها مثل تلك التي بقيت غامضة عرضة للتبدّل والتغير والصيرورة، بمعنى أنها قد تتحول في لحظة ما إلى حال من الغموض، لماذا على الباحث أن يجمّدها داخل نظام معين؟ ليبحث كيف يبرهن أن ينكر؟ وهو قد أشكل عليه الفهم نتيجة للتبدّل والتغير، وهل يستطيع أن يفترض هذا النظام لو لم يلتبس عليه الأمر، إنه لا يستطيع تجاوز ذلك، وإنّ هذا الالتباس يعينه في تحديد ماذا ينبغي أن يبحث. إذ إن لجوء الباحث لوضع هذا النظام الافتراضي، الذي يعطي ما يمكن أن نسميه إجابات مسبقة، هو تجاوز للبحث العلمي، إذ ليس على الباحث أن يجيب عن أسئلة البحث قبل البحث، وليس المطلوب من الباحث امتلاك إجابة قبل البحث، بل المطلوب منه النزول إلى الحقل والبحث، هنا ينتقل الباحث من «الالتباس في الفهم» إلى حال «حركة الفهم».

- أهم خصائص إشكالية البحث:

١ـ قابلية الإنجاز: إذ لا معنى لوضع إشكالية مهما كانت أهميتها، وهي غير قابلة للإنجاز أو المعالجة، أو أنَّ الباحث لا يمتلك الآليات اللازمة، ولا يمتلك المقدرة على البحث والمعالجة. وقابلية الإنجاز تتطلب من الباحث تحديد نطاق بحثه قدر الإمكان.

٢ـ الأهمية: يرتبط هذا الأمر بأهمية الموضوع، فإذا لم يكن للموضوع المدروس أهمية معتبرة، يعني ذلك أنَّ هناك هدراً

للطاقة والوقت والإمكانات، وكلما شعر الباحث بأهمية بحثه، كانت حماسته أكبر، وكلما أحسّ أنّ الأهمية أقل تراجعت الدافعية لديه.

- أسئلة تساعد على ضبط الإشكالية:

أ ـ معيار القابلية

- هل تمّ تحديد الإشكالية على نحو يسمح بالتحقق العلمي منها؟
- هل تساهم الإشكالية في ضبط الموضوع؟
- هل يمتلك الباحث الميزة اللازمة لإجراء البحث انطلاقاً من وضع الإشكالية والعمل على تحققها علمياً؟
- هل لدى الباحث الاهتمام الكافي بالبحث؟
- هل تتوافر لدى الباحث الإمكانيات اللازمة والوقت الكافي لإنجاز عمله؟
- هل تمّت صياغة الإشكالية على نحو يراعي أخلاقيات البحث العلمي؟

ب ـ معيار الأهمية

- هل يتوقع أن يساهم تناول الإشكالية في تحقيق واحد أو أكثر من الأهداف التالية؟:

١ـ تطوير المعرفة في إطار الاختصاص العلمي.

٢ـ تطوير نظرية ما في الاختصاص.

٣ـ تعميق مستوى الفهم لنظرية ما.

٤ـ تطوير المنهجية البحثية.

٥ـ تقييم ممارسات أو سياسات معينة.

٦ـ تصحيح مسار معرفي معين.[1]

في الختام وبالعودة إلى وضع موقع الإشكالية في إطار الزمان والمكان المحددين لموضوع البحث وموضوعيته، يجب الإقرار بأمرين:

١ـ تاريخياً، إن الإشكالية هي الوريث النظري والتطبيقي للفرضية، بعد قرنين من الزمان، بين نشوء النظريات الحديثة في علم النفس والاجتماع وبين ثورة المعلوماتية والرقم.

٢ـ مكانياً، إنّها تعبّر عن حركة التحرر الفكري الاجتماعي، إنّها تعبير عن حركة الوعي، وعن انفتاح الميدان المعرفي وانتقاله من المركز الغربي إلى فضاء العالم الإنساني.

---

(١) راجع: جابر عبد الحميد جابر وأحمد خيري كاظم، مناهج البحث في التربية وعلم النفس: دار النهضة العربية القاهرة، ١٩٨٩ ص ٤٢.

وراجع: جمال الخطيب، إعداد الرسائل الجامعية، دليل علمي لطلبة الدراسات العليا؛ دار الفكر، الأردن ٢٠٠٦م.

الخاتمة

يمثل إنتاج المعرفة، الحال الأرقى والأكثر أهمية في حياة المجتمعات، بها ومن خلالها يحدث التطور والتعبير والابتكار والإبداع.

هذه المعرفة المنقسمة تلقائياً، قبلية وإنتاجية، تعبّر عن الإمكانات التي يمتلكها الإنسان في مقابل غيره من الموجودات. وإذا كانت المعرفة القبلية تكاد تكون واحدة لدى كلّ الناس، يعبّرون عنها بأفعال وردّات أفعال تبدأ من اللحظة الأولى للولادة، وتمكّن من التعبير عن الدهشة والتعجب، فإن هذه المعرفة تتيح الانطلاق نحو المعرفة بقسمها الثاني، المعرفة المنتجة، إنها تدفع نحو إنتاج المعرفة.

مجرّد الدهشة والتعجّب اللذين يحدثان لدى الإنسان تنطلق الأسئلة والتساؤلات، وتنطلق عمليات البحث والتنقيب والتمحيص والاستدلال والاستقراء والاستنباط بطرائق عادية وبطرائق علمية.

كان الإنســان ولا يــزال باحثــاً، يكتشــف ويفهــم ويــدرك ويعــرف، ويراكــم تلــك المعرفــة. لقــد تمكّــن مــن خــلال المعرفــة مــن الانتقــال تدريجــاً خــلال مراحــل التاريــخ فــي عمليــات التطــور الحضــاري والفكــري والتكنولوجــي، إلــى أن وصــل إلــى مــا هــو عليــه اليــوم. تميــزت المعرفــة بكونهــا علميــة وغيــر علميــة، كلا المعرفتيــن مكنتــا المجتمــع الإنســاني مــن التغيــر والتطــور. إلَّا أنَّ المعرفــة العلميــة، لعبــت دوراً كبيــراً فــي ســلطنة الإنســان داخــل الطبيعــة وعليهــا، وجعلتــه متحكمــاً فــي كثيــر منهــا.

احتاجــت هــذه المعرفــة لتمكّــن الإنســان مــن ذلــك، إلى منهــج علمي، تعمــل وفقــه فــي ميادیــن البحــث؛ فــإدراك الظواهــر الطبيعيــة والإنســانية والحقائــق الرياضيــة وبراهينهــا، ممكــن بوســاطة مناهــج واتجاهــات فــي التفكيــر والبحــث.

لقــد ذكرنــا فــي كتابنــا الســابق مركبــات التفكيــر ومناهــج البحــث العلمــي، «إن اســتخدام المنهــج هــو الــذي يجعــل العلــم قــادراً علــى الإجــراء التنظيمــي وتحقيــق النظــام...»، وذكرنــا أنــه «مــع وجــود الإنســان وجــد العلــم الإنســاني، فقــد بــدأت لحظــة وجــوده أعمــال البحــث والتفكّــر والتفكيــر والتســاؤل والتفلســف والكشــف والتعــرف والتوصيــف والتوظيــف والتصنيــف، وأحــدث خــلال تاريخــه سلســلة مــن التطــورات وأشــعل العديــد مــن الثــورات العلميــة التــي نقلــت البشــرية مــن حــال إلــى حــال».

لقد وضع منهج البحث أو وضعت مناهج البحث في الإطار العملي قبل أن تصاغ في الإطار النظري منذ أن بدأ الإنسان عمليات البحث والكشف والتعرّف... ولم تصنف المناهج ولم تعرف أنها مناهج بحث بالمعنى المعاصر، بل كان يعرف أنَّ لكل طريقته في البحث والمعرفة إلى أن عُرِّف المنطق من قبل أرسطو، وعُرِّف المنهج على يد راموس وزاربيلا في القرن السادس عشر، وشاع استخدامه في كتابات فرنسيس بيكون ورينيه ديكارت...

لقد كان لهذا المنهج أسس معرفية، جعلته قادراً على تسجيل التقدّم الكبير في حياة الإنسانية منذ القرن التاسع عشر، أي منذ الانتقال إلى مرحلة الحداثة وما بعدها وما بعد بعد الحداثة، والعولمة ومرحلة التفكيك والتذرير.

إن هذا المنهج مكّن البحث العلمي من عبور مراحله ومحطّاته بميزة تحمل في ذاتها مجمل القدرات الإنسانية، إنها مسألة حيوية في العلم، القدرات الإنسانية الباحثة من خلال المنهج العلمي، تطوّر العلم وتكشفت أوجهه، وثار العلم، إنه الوعي الإنساني المتحرّك بحركة العقل الإنساني.

المراجع

المراجع باللغة العربية

١ـ إبراهيم، عبدا لله: علم الاجتماع (السوسيولوجيا)، المركز الثقافي العربي، الطبعة الثانية، بيروت، ٢٠٠٦م.

٢ـ أبو الفضل، جمال الدين محمّد بن مكرم (ابن منظور)، لسان العرب، دار صادر، بيروت ٢٠٠٣م. (معجم).

٣ـ التير، د. مصطفى عمر، مساهمات في أسس البحث الاجتماعي، معهد الإنماء العربي، بيروت ١٩٨٩م.

٤ـ الخطيب، جمال، إعداد الرسائل الجامعية، دليل علمي لطلبة الدراسات العليا ، دار الفكر، الأردن ٢٠٠٦م.

٥ـ الخولي، د. يمنى طريف، فلسفة العلم في القرن العشرين، الأصول، الحصاد، الآفاق المستقبلية، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، الطبعة الأولى، كانون الثاني ٢٠٠٠، ضمن سلسلة «عالم المعرفة» العدد رقم ٢٦٤.

٦ـ الفندي، د. محمّد ثابت، فلسفة الرياضة، دار النهضة العربية، بيروت، ١٩٦٩م.

٧ـ القريمي الكفوي، أيوب بن موسى الحسيني، (أبو البقاء)

الكليـات، تحقيـق د. عدنـان درويـش ومحمّـد المصـري، منشـورات ذوي القربـى، إيـران، قـم، ١٠٩٤ هـ. (المعجـم).

٨ـ القرآن الكريم، سورة الحجرات.

٩ـ جابـر، عبـد الحميـد جابـر، وأحمـد خيـري كاظـم، مناهـج البحـث فـي التربيـة وعلـم النفـس، دار النهضـة العربيـة القاهـرة، ١٩٨٩م.

١٠ـ جمعـة، زكـي، مركبـات التفكيـر ومناهـج البحـث العلمـي، دار الفارابـي، بيـروت، ٢٠١٥م.

١١ـ خليـل، خليـل أحمـد، مفاتيـح العلـوم الإنسـانية، دارالطليعـة، بيـروت، ١٩٨٩م. (معجـم).

١٢ـ خواجـة، د. أحمـد، أوهـام المؤالفـة بيـن العلـوم والإيديولوجيـا، مجلـة الفكـر العربـي، العـدد ٥٥، كانـون الثانـي وشـباط ١٩٨٩م.

١٣ـ سـتراوس، كلـود ليفـي، مقـالات فـي الإناسـة، ترجمـة، د. حسـن قبيسـي، دار التنويـر، بيـروت، بـدون تاريـخ.

١٤ـ فضـل اللـه، د. مهـدي، مدخـل إلـى المنطـق (المنطـق التقليـدي)، بيـروت، دار الطليعـة، ١٩٨٥م.

١٥ـ محمّـد علـي محمّـد: علـم الاجتمـاع والمنهـج العلمـي، الإسـكندرية، دار المعرفـة الجامعيـة، ١٩٨٦م.

١٦ـ منيمنـة، د. جميـل، المنهـج المعاصـر، مجلـة الفكـر العربـي، العـدد ٥٥، السـنة العاشـرة، كانـون الثانـي وشـباط ١٩٨٩، معهـد الإنمـاء العربـي.

١٧- و. بـودون، وف. بوريكـو، المعجـم النقـدي لعلـم الاجتمـاع. ترجمـة د. سـليم حـداد، المؤسسـة الجامعيـة للدراسـات والنشـر والتوزيـع، مجـد، بيـروت الطبعـة الثانيـة، ٢٠٠٧م. (معجـم).

١٨- هيدغـر، مارتـن، مبـدأالعلـة، ترجمـة د. نظيـر جاهـل، المؤسسـة الجامعيـة للدراسـات والنشـر والتوزيـع، مجـد، الطبعـة الأولـى، بيـروت١٩٩١م.

١٩- ويمـر، روجـر، ودومينيـك جوزيـف، مدخـل إلـى مناهـج البحـث الإعلامـي، ترجمـة صالـح أبـو إصبـع، وفـاروق منصـور، المنظمـة العربيـة للترجمـة، البصـرة وبيـروت، حزيـران ٢٠١٣م.

المراجع باللغة الأجنبية

1- Claude riviere, l'objet social, op.cite .

2- Hassan hamali, théologie et anthropologie, in renaissance du monde. Arabe, colloque, Genève, 1975.

3- Jean- Francois Lyotard, L'Enthosiasme, Editions. Galilee.

4- La guizaine litteraire, Mai 1966.

5- Lazarsfeld, Paul, Qu'est-ce que La Sociologie, Gallimard, Paris, 1970.

6- Marcel Mouss, Essais de Sociologie, Minuit. Paris, 1968.

7- Paul Feyerabend, contre la methode, Editions du seuil, 1979.

8- Pierre bourdieu, Choses dites, Minuit, 1987.

9- Pierre bourdieu, Reponses, Seuil. Paris, 1992 .

يحاول هذا الكتاب مناقشة أهمية المعرفة، والتفكير العلمي، ويذهب إلى نقاش موضوعة الموضوعية، وعلاقتها بالمعرفة العلمية، في محاولة لفهم كيفية اشتغال البحث العلمي، في العلوم الإنسانية والاجتماعية، استناداً إلى الفكر العلمي الحديث، المنطلق من مبدأ الضرورة التي احتاجت في مواجهتها (المواجهة بين الفكر العلمي الحديث والفكر الديني، منذ انطلاقة الثورة الفرنسية) ، إلى إبعاد الوعي الإنساني، أي إيجاد انفصام إنساني، بين إنسان موضوع للعلم وإنسان يبحث فيه، جعل الإنسان الأول موضوع العلم، شيئاً جامداً. الإنسان الفرد والجماعة، حتى يتمكن الإنسان الآخر (مفهوم التميز) من درسه. الثاني جعله بلا وعي، وكان عليه أن ينطلق من واقع أنه يمتلك دماغاً فيزيولوجياً وظيفياً يتحرك من خلاله في البحث، إنه ضرب الإنساني بالإنساني، وتحويله إلى أشياء مخصوصة، لأناس مخصوصين، علماء منجمين، يفرطون في القطع والحكم باسم العلم الإنساني الاجتماعي الذي لم يمتلك مشروعيته العلمية حتى الآن.

الدكتور زكي حسين جمعة، لبناني من مواليد ١٩٦٧، علي النهري – زحلة البقاع.

- **حائز شهادة دكتوراه من الفئة الأولى في العلوم الاجتماعية.**
- **عمل مديراً للدراسات في المركز الإحصائي الاستشاري.**
- **عمل مستشاراً لوزير الشؤون الاجتماعية.**
- **أستاذ العلوم الاجتماعية وعلم الاجتماع السياسي ومنهجيات البحث العلمي في الجامعة اللبنانية.**
- **كاتب وباحث.**

من أهم مؤلفاته:

بيروت بين الانفتاح والانغلاق، اتحاد الكتاب اللبنانيين، ٢٠٠٨ م.

تدافع العقول، دار الفارابي، بيروت ٢٠١٢ م.

مساهمات في التنشئة الاجتماعية، دار الفارابي، بيروت ٢٠١٣ م.

مركبات التفكير ومناهج البحث العلمي، دار الفارابي، بيروت ٢٠١٥ م.


ISBN 978-614-432-497-4
9 786144 324974